حكايات تولستوي



ترجمة: كاظم سعد الدين

حكايات تولستوي

ترجمة: كاظم سعد الدين



فريق التوثيق الألكتروني

حكايات تولستوي ـ الجزء الاول

ترجمـة : كاظم سعدالدين

الطبعة العربية الاولى ١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظـة

الناشر : وزارة الثقافة والاعلام دار ثقافـة الاطفـال
العراق ـ بغداد بريد ٨ شباط ص.ب ٨٠٤١

سلسلـة مكتبتنـا
تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام : فاروق سلوم
سكرتير التحرير : فاروق يوسف

حكايات تولستوي

مقدمـــة

ولد ليو تولستوي في ياسنايا بوليانا ، تولا في روسيا في اليوم التاسع من ايلول ١٨٢٨ في عائلة ثرية ودرس دراسة خاصة ، وتعلم اللغات الشرقية ، والقانون في جامعة كازان والتحق بالجيش واشترك في حرب القرم . وفتح مدرسة لاطفال الفلاحين في منطقته وتزوج عام ١٨٦٢ وانجب ثلاثة عشر طفلا ، واهتم بشؤون الفلاحين وكتب رواية (الحرب والسلام) و (انا كارنينا) و (البعث) ومسرحيات وقصصا مفيدة ومقالات في الادب والفن والنقد وروايات قصيرة امثال الحاج مراد وكتب مجموعات رائعة من القصص الموجهة للاطفال والفتيان . ودون سيرة حياته في ثلاثة اجزاء ، الطفولة والصبا والشباب وسجل اعترافاته ومعتقداته . وله فلسفته وتعاليمه في الحياة وشجب الملكية الخاصة ووزع ممتلكاته على فلاحيه . وصار له كثير من المؤيدين في روسيا وخارجها وكان له كثير من المعارضين . مات ميتة مأساوية في شتاء عام ١٩١٠ في محطة قطار صغيرة .

يتكون هذا الكتاب من سبعة اقسام :

نشر (تولستوي) حكايات : الله يمهل ولا يهمل ، وسجين في القفقاس ، وصيد الدببة في نحو عام ١٨٧٢ وهي موجهة خصيصا للاطفال ، وتذكرنا بالوقت الذي كان تولستوي منغمرا في جهوده لتعليم ابناء الفلاحين . ويحب تولستوي قصتين من هذه القصص اكثر من اي شيء كتبه . ففي كتابه ((ما الفن ؟)) لا يفرد مكانا بين امثلة الفن الرفيع لاي من نتاجاته الخاصة ((ما عدا قصة ((الله يمهل ولا يهمل)) التي تحتل مكانا في الدرجة الاولى ((اي الفن الديني)) ، وقصة ((سجين في القفقاس)) التي تنتمي الى الدرجة الثانية ((اي الفن الدنيوي)) . الموضوع في القصة الاولى ، وهو اثير الى نفس

تولستوي ، يخص الظلم والعفو . اما القصة الثانية فانهـا تتناول ابسط المشاعر السائدة بين جميع ابناء البشر : الخوف والشجاعة ، الشفقة والتحمل وغيرها التي عبر عنها بنحو ذاتي ووضوح واخلاص وهي سمات الفن الصادق كما يقول تولستوي .

ويتضمن القسم الثاني حكايات شعبية كتبها بين عام ١٨٨١ و ١٨٨٥ وهي بأي شيء يعيش الانسان ، شرارة مهملة تحرق بيتا ، الشيخان ، أينما يكـون الحب فثمة وجه الله ، ولعل حكاية بأي شيء يعيش الانسان ؟ اوسع قصص تولستوي انتشـارا . وهـي تستند الى اسطورة مكررة عن ملاك ارسله الله ليعيش مدة قصيرة من الزمان بين الناس .

اما القسم الثالث فيضم حكاية جان وهي حكاية ايفان الابله تظهر فيها تولستوي للتسلط العسكري والروح التجارية .

ويتضمن القسم الرابع ثلاث قصص لتشجيع بيع نسخ منقولة رخيصة لبعض الرسوم الممتازة . فقد كان تولستوي يسعى جهـد طاقته سنوات كثيرة لانتشار الرسوم الجيدة والاعمـال الادبيـة بأسعار زهيـدة .

وفي القسم الخامس حكايات شعبية روسية . ومن لآلىء هذه المجموعة قصة الاعتدال وضبط النفس الموسومة ((الجني وكسرة الخبز)) وقصة ((الطبل الفارغ)) قصة مناهضة للحرب ، وقصـة اخرى ((كم من الارض يحتاج الانسان ؟)) تتناول طمع احد الفلاحين بالارض . اما قصتا ((حبة بحجم بيضة الدجاجة)) و ((الابن)) فهما من السمات المميزة لروح المجتمع الفلاحي ، وتعطينا لمحة عن المصـادر التي استقى منها تولستوي كثيرا من امور تعاطفه او معارضته .

وفي القسم السادس : قصتان مقتبستان من الفرنسية ، الاولى من تأليف برناردين دوسان بيير والثانية من غي دي موبسان . وهما ليستا مجرد ترجمة لان تولستوي حور الى حد ما فيهمـا لـدى ترجمته وجعلهما خاصتين به .

وفي القسم السابع اسطورة مقتبسة من هنود امريكا الجنوبية وحكاية اخرى بعنوان الاسئلة الثلاثة .

ان الاهمية التي يعزوها (تولستوي) الى الادب من النـوع الذي يتضمنه هذا الكتاب تتجلى في القطعة الاتية من كتاب ما الفن ؟

« سيفهم فنان المستقبل ان تأليف حكاية جان او اغنية صغيرة مؤثرة او ترنيمة سرير او احجية مسلية او دعابة مازحة او رسم صورة تسر عشرات الاجيال او الملايين من الاطفال والكبار ، لهو اهم بما لا يضاهيه شيء وانفع من تأليف رواية او سمفونية او تلوين صورة من النوع الذي يلهي بعض افراد الفئات الفنية مدة قصيرة من الزمن ثم ينسى الى الابد .

ان مجال هذا الفن لابسط المشاعر المتيسرة للجميع لهو مجال فسيح وما يزال لم يمسسه احد .

الله يمهل ولا يهمل



عاش في مدينة فلاديمير تاجر شاب اسمه (ايفان ديمتريج اكسينوف) • وكان يمتلك حانوتين وبيتا •

كان ايفان وسيما ، جعد الشعر ، اشقره ، مرحا ، شديد الولع بالغناء • كان مدمنا على الخمرة في ريعان شبابه ، ويعربد اذا ما افرط في الشرب ، ولكنه ترك الشرب بعد ان تزوج ، الا في أوقات متباعدة •

وقد ازمع في يوم من ايام الصيف ان يذهب الى سوق نزني ، وعندما ودع عائلته قالت له زوجته : ايفان ، لا تذهب اليوم ، فقد حلمت حلما رديئا عنك •

فضحك ايفان وقال لها : انك تخشين ان اسرف في الشرب اذا ما ذهبت الى السوق •

فأجابت زوجته : أنا لا ادري مم اخاف • وكل الذي ادريه انني رأيت حلما رديئا • حلمت انك عدت من المدينة ، وعندما خلعت قبعتك ، رأيت ان شعرك اشتعل شيبا •

فتضاحك ايفان قائلا : هذه علامة فأل حسن • فانظري كيف سأبيع كل بضاعتي واجلب لك بعض الهدايا من السوق •

وودع عائلته ومضى راكبا عربته •

وعندما قطع نصف المسافة ، التقى بتاجر يعرفه • نزل الاثنان للمبيت في فندق واحد ، وشربا الشاي معا ، ثم ذهبا ليناما في غرفتين متجاورتين ولم تكن عادة (ايفان) ان ينام متأخرا ، فقد كان يرغب في السفر عندما يكون الجو باردا ، فايقظ سائق العربة قبل طلوع الفجر واخبره • ان يهيء الخيل • ثم توجه الى صاحب الفندق ،

الذي كان يسكن في بيت خلف الفندق ودفع له الحساب ، وواصل رحلتـــه •

وبعد ان قطع نحو خمسة وعشرين ميلا ، توقف لاعطاء العلف الى الخيل ، وأراح ايفان نفسه في مجاز الفندق ، ثم خـــرج الى الرواق وطلب « سماورا » لصنع الشاي ، واخرج قيثارته وشـــرع يعـــزف •

وسرعان ما وصلت عربة « ترويكا » تجرها ثلاثـــة خيول ، ويسمع لاجراسها رنين ، ترجل منها ضابط يتبعه جنديـــان • جاء الضابط الى (ايفان) وبدأ باستجوابه ، فسأله من هو ومن ايـــن جاء ؟ فأجاب ايفان على اسئلته وقال له : « الا تشرب معي قليلا من الشاي ؟ »ولكن الضابط واصل استجوابه قائلا : اين امضيت ليلة أمس ؟ كنت وحدك ام مع تاجر آخر ؟ أرأيت ذلك التاجـــر صباح هذا اليوم ؟ لمـــاذا غادرت الفندق قبل الفجر ؟

تساءل ايفان في نفسه : لماذا يوجه اليه كل هذه الاسئلـــة ؟ ولكنه سرد للضابط ما جرى ، ثم اضاف قائلا : لماذا تستجوبني كأنني لص او قاطع طريق ؟ اني راحل في شأن من شؤون عملي الخاص ، ولا يستدعي ذلك استجوابي •

ثم نادى الضابط الجنديين ، وقال له : انا مدير شرطة هذه المنطقة واني استجوبك لان التاجر الذي امضيت الليلة معه وجد مذبوحـــا • ويجب ان نفتش اشياءك •

ودخلوا الفندق • وفك مدير الشرطة وجنوده حقائب ايفان وفتشوها • وما لبث الضابط ان اخرج سكينا من احدى الحقائب وصاح : سكين مـــن هذه ؟

ونظر ايفان ولما راى سكينا ملطخة بالدم تخرج من حقيبته تولاه الذعر •

ـ كيف جاء الدم على هذه السكين ؟

حاول (ايفان) ان يجيب ، غيرانه لم يستطع ان ينطق كلمة• ثم قال : لا ••• ادري •• ليست لي •

فقال مدير الشرطة : وجد التاجر صباح هذا اليوم مذبوحا • انت الشخص الوحيد الذي يمكن ان يفعل ذلك • فقد كان الفندق مغلقا من الداخل ولم يكن احد غيرك فيه • وها نحن وجدنا هذه السكين الملطخة بالدم في حقيبتك ، وان وجهك وسلوكك يدلان عليك ويخذلانك ! فقل لي كيف قتلته وكم من المال سرقت ؟

أقسم (ايفان) انه لم يفعل ذلك ، وانه لم ير التاجر بعد ان تناولا الشاي معا ، وانه لا يحمل معه الا ثمانية الاف روبل وهي ماله الخاص ، وان السكين لم تكن له ، ولكن ضعف صوته ، وشحب وجهه ، وارتعش رعبا كأنه مجرم •

وامر الضابط جندييه ان يكبلاه ويضعاه في العربة • وعندما ربطا رجليه والقياه في العربة ، ابتهل الى ربه وصار يبكي • وصودرت امواله وبضاعته ، وارسل الى اقرب مدينة والقي في سجنها • وجرت التحريات بشأن شخصيته في مدينة فلاديمير • فقال التجار واهل المدينة انه اعتاد في الماضي ان يشرب ويضيع وقته ، ولكنه كان رجلا طيبا • وحان موعد المحاكمة وادين بقتل تاجر من مدينة (ريازان) وسرقة عشرين الف روبل منه • اما زوجته فقد اصابها اليأس ولم تدر ماذا تفعل • كان اطفالها صغارا ،

واخذهم رضيعا على صدرهـا • فاخذتهـم معهـا الى المدينة التي سجن فيها زوجها • ولم يسمح لها باديء ذي بدء ان تواجهه ولكن بعد توسل وتضرع ، سمحت لها الشرطة بأن تؤخذ اليه • ولما رأت زوجها في ثوب السجن مكبلا بالاغلال ، حبيسا مع اللصوص والمجرمين ، تهاوت على الارض ولم تعد الى وعيها الا بعد وقت طويل • ثم حضنت اطفالها وجلست قربه ، وحدثتـه عن امـور البيت • وسألته عما جرى له • فاخبرها • وسألته : وماذا تستطيع الآن ان نفعل ؟

قال لهـا :

— يجب ان نقدم عريضة الى القيصر نلتمس فيها ان لا يـدع بريئا يقتل •

فقالت له زوجته انها قدمت عريضة الى القيصر ولكنها لـم تقبل • ولم يجب (ايفان) بل ظل مطرقا •

ثم قالت زوجته : لم يكن عبثا حلمي ان شعرك اشتعل شيبا • اتذكر ذلك ؟ كان يجب الا ترحل في ذلك اليوم •

ثم مررت اصابعها خلال شعره وقالت : عزيزي ايفان ، قـل الحقيقة لزوجتك • الست انت الذي فعل ذلك ؟

فقال مستغربا : أنت ايضا تشكين بي •

واخفى وجهه بيديه وراح يبكي •ثم جاء شرطي يأمر الزوجة والاطفال بالخروج ، وودع (ايفان) عائلته وداعا اخيرا •

وعندما ذهبوا استذكر (ايفان) الحديث الذي جرى بينهما ، وكيف شكت به حتى زوجته • فقال في نفسه : يبدو ان الله وحده يعرف الحقيقة • فاليه وحده أنيب امري ومنه التمس الرحمة •

ولم يعد (ايفان) يكتب عرائض استرحام وفقد الامل الا من رحمة الله وصار يصلي اليه •

وحكم على (ايفان) ان يضرب بالفلقة ويرسل الى المناجم • فضرب بالفلقة ، وعندما شفيت جروحه ، سيق مع المحكومين الاخرين الى سيبريا •

أمضى ايفان ستا وعشرين سنة محكوما في سيبريا وابيض شعره فغدا بلون الثلج ، وطالت لحيته وشابت • وزال عنه روح المرح ، وانحنى ظهره وصار يمشي وئيدا ، ويتكلم قليلا ، ولم يضحك قط ، وكثرت صلاته •

تعلم ايفان في السجن صناعة الاحذية وكسب مالا قليلا اشترى به كتاب « قصص القديسين » ، وصار يقرأ ذلك الكتاب حين يكون النور كافيا في السجن • وفي ايام الاحد ، في كنيسة السجن ، كان يقرأ الانجيل ويرتل مع المرتلين ، فقد كان صوته ما يزال جيدا •

واحب المسؤولون في السجن (ايفان) لوداعته واحترامه زملاؤه السجناء • واذا ما ارادوا التماس سلطات السجن عن شيء ، قدموا ايفان متكلما بلسان حالهم ، وعندما تنشب بين السجناء خصومة كان يفضها بالحسنى ويحكم بالعدل بينهم •

ولم يصل ايفان خبر من اهله ولم يعرف ان كانت زوجته واطفاله على قيد الحياة •

وفي يوم ما وصلت زمرة من المحكومين الجدد الى السجن• فتجمع عند المساء السجناء حولهم وسألوهم من اي مدينة او قرية

جاءوا ولماذا حكم عليهم • وجلس (ايڤان) قرب القادمين الجدد واصغى كئيبا الى ما قيل •

وكان احد المحكومين الجدد رجلا طويلا ، قويا ، في الستين من عمره ، قصير اللحية ، أشيبها ، يحدث الاخرين لماذا القي القبض عليه •

قال : حسنا ، يا زملائي ، لم افعل شيئا سوى انني اخذت حصانا مربوطا الى زلاجة ، فالقي القبض عليّ • واتهمت بالسرقة ، فقلت انني اخذت الحصان لكي اصل الى البيت بوقت اسرع ثم تركته • وقد كان صاحبه صديقي • فقلت : لا بأس في ذلك فقالوا : بل سرقته •

ولكن لم يستطيعوا ان يقولوا كيف سرقته واين • انني في الحقيقة اقترفت يوم اثما وكان يجب ان اجيء الى هنا قبل مدة طويلة ، ولكن لم يكتشف امري آنذاك • اما الآن فقد ارسلت الى هنا من اجل شيء لايستحق الذكر ، قط • ولكنني اكذب عليكم • فقد جئت الى سيبريا قبل هذا ولكنني لم امكث طويلا •

فسأله احدهم : ومن اين انت ؟

فقال : من ڤلاديمير • عائلتي من تلك المدينة • واسمي (مكار) • ويدعونني ايضا سيمينج •

رفع ايڤان راسه وقال له : اخبرني يا سيمنيج ، اتعرف شيئا عن آل اكسينوف التجار في فلاديمير ؟ اما زالوا على قيد الحياة !

— اعرفهم ؟ طبعا اعرفهم • آل اكسينوف اغنياء على الرغم من اما انت ، ايها الجد ، كيف جئت الى هنا ؟

ولم يكن (ايفان) يود الحديث عن مصيبته ، بل تنهد وقال : امضيت من اجل آثامي ستا وعشرين سنة في السجن •

فسأله مكار : واية آثام ؟

ولكن ايفان لم يقل سوى : « حسنا ، حسنا ــ لابد انــي استحق ذلك • » ولم يقل شيئا آخر ولكن زملاءه حدثوا القادم الجديد كيف جاء ايفان الى سيبريا ، كيف قتل احدهم تاجرا ووضع السكين بين اشياء ايفان ، فحكم عليه ظالما •

وعندما سمع (مكار) ذلك نظر الى ايفان وضرب ركبتــه وقال : « هذا شيء عجيب ! حقا امر عجيب ! ولكن ما أشــد مــا كبرت ايها الجد ! »

فسأله الاخرون لمــاذا دهش كثيرا ، واين رأى ايفان قبل هذا ، ولكن (مكار) لم يرد عليهم ، بل قال : عجيب ان نلتقي هنا ياالاولاد !

جعلت تلك الكلمات (ايفان) يسائل نفسه ان كان هــذا الرجل يعرف من قتل التاجر ، فقال : لعلك يا مكار سمعت بذلك ، او لعلك رأيتني قبل هذا ؟

فاجاب: كيف لم اسمع ؟ فالعالم مليء بالاشاعات • ولكــن مضى على ذلك عهد طويل ولكني نسيت ما سمعت •

فسأله ايفان : لعلك سمعت من قتل التاجر ؟

فضحك مكار واجاب : يجب ان اكون ذلك الشخص الذي وجدت السكين في حقيبته ! لو ان شخصا آخر اخفى السكين هناك ــ ولكن ليس الشخص لصا حتى يقبض عليه كما يقول المثــل •

كيف استطاع احد ان يضع السكين في حقيبتك وهي تحت رأسك؟
ام يجعلك ذلك تستيقظ !

وعندما سمع ايفان تلك الكلمات تأكد ان هذا الرجل هو الذي قتل التاجر . فنهض وغادر المكان . وظل طوال تلك الليلة مسهدا. شعر بالتعاسة الشديدة . وجالت في مخيلته جميع انواع الصور . خطرت بباله صورة زوجته يوم افترقا عند ذهابه الى السوق . رآها كأنها حاضرة امامه بوجهها وعينيها . وسمعها تتكلم وتضحك . ثم راى طفليه ، صغيرين ، كما كانا يوم ذاك : احدهما يلبس معطفا صغيرا والاخر على صدر امه . ثم تذكر نفسه كما كان — شابا مرحا . وتذكر كيف جلس يعزف القيثارة في شرفة الفندق حيث القي القبض عليه ، وكيف كان خاليا من الهموم . رأى في مخيلته المكان الذي ضرب فيه بالفلقة ، والجلاد والناس الواقفين حوله ، والسلاسل ، والمحكومين والست والعشرين سنة من عمره في السجن ، وشيخوخته المبكرة . جعلته ذكرى ذلك كله شديد البؤس فهم ان يقتل نفسه .

وراح ايفان يفكر : ان ما حدث كله من فعل ذلك الوغد .

واحتدم غيظا على (مكار) واراد الانتقام حتى ولو كان في ذلك هلاكه . ولكنه راح يتلو الدعوات ويصلي طوال الليل ، ولكن لم تهدأ ثائرته . ولم يقرب من (مكار) في اثناء النهار ، ولم ينظر اليه .

ومر اسبوعان على هذا النحو . ولم يستطع (ايفان) ان ينام ليلا وكان بائسا كل البؤس فلم يعرف ماذا يفعل .

كان ذات يوم يتمشى في السجن ، فلاحظ ترابا تحت احد الاسرة التي ينام عليها السجناء . فوقف ليرى . وما لبث ان خرج (مكار) زاحفا من تحت السرير ونظر الى ايفان برعب شديد ، وحاول ايفان ان يمر من دون ان ينظر اليه ، ولكن (مكار) امسك بيده واخبره انه حفر نفقا تحت الجدار وكان يتخلص من التراب بوضعه في حذائه الطويل والقائه في الطريق كل يوم عندما يخرج السجناء الى عملهم .

ـ اذاسكت ايها الشيخ فانك ستخرج ايضا ولكن اذا افشيت السر فانهم سوف يجلدونني حتى الموت ، ولكنني سأقتلك اولا .

ارتعد (ايفان) غضبا وهو ينظر الى عدوه . وسحب يده منه قائلا : ليست لدي رغبة في الهرب ، وليست بك حاجة الى قتلي ، فقد قتلتني قبل وقت طويل ! اما الاخبار عنك ـ فقد افعل ذلك او قد لا افعل ، تلك هي مشيئة الله .

وفي اليوم التالي ، عندما اخرج السجناء الى العمل ، لاحظ احد الحرس ان احد السجناء قد افرغ ترابا من حذائه . وفتش السجن وعثر على النفق . وحضر مدير السجن واستجوب جميع السجناء ليعرف من حفر النفق . وانكر الجميع اية معرفة بذلك . وحتى الذين يعرفون لن يفشوا امر (مكار) ، لانهم يعرفون انه سيجلد حتى يكاد يموت . ثم استدار المدير الى (ايفان) الذي يعرفه رجلا عادلا وقال له : انت شيخ صادق . فاخبرني بالله عليك من حفر النفق ؟

ووقف (مكار) كأن الامر لا يعنيه كثيرا وهو ينظر الى المدير ويلمح (ايفان) في الوقت نفسه . وراحت شفتا ايفان ويداه ترتعش ولم يستطع ان ينطق كلمة واحدة مدة طويلة . وفكر في نفسه : لماذا احجب من حطم حياتي ؟ ليدفع ثمن ما عانيت . ولكن اذا اخبرته عنه ، فانهم قد يجلدونه حتى الموت ، ولعلي اكون قد شككت به خطأ واي خير سأجني من ذلك ، بعد هذا كله ؟

فاعاد المدير عليه القول : حسنا ، ايها الشيخ ، اخبرنا بالحقيقة : من الذي حفر تحت الجدار ؟

نظر ايفان الى (مكار) نظرة خاطفة وقال : لا استطيع ان اقول يا صاحب الفضيلة . انها مشيئة الله الا اقول شيئا ! فافعل بي ما تشاء . وها انا بين يديك .

ولم يفصح ايفان بشيء مهما حاول المدير ، فتركت القضية . في تلك الليلة ، عندما كان ايفان مستلقيا على فراشه وهو يوشك ان يغفو ، تسلل شخص بهدوء وجلس على سريره . حدق ايفان في الظلام فعرف انه مكار .

وسأله ايفان : وماذا تريد مني بعد هذا ؟ لماذا جئت الى هنا ؟

لم يجب (مكار) ، بل ظل ساكتا ، فجلس ايفان وقال له : ماذا تريد ؟ هيا اذهب والا ناديت الحرس !

مال (مكار) نحو ايفان وهمس : اصفح عني يا ايفان !

فسأله ايفان : عن اي شيء ؟

فأجاب : انا الذي قتلت التاجر واخفيت السكين في اشيائك . أردت قتلك ايضا ، ولكني سمعت ضجة في الخارج فاخفيت السكين في حقيبتك وهربت من النافذة .

سكت (ايڤان) ولم يدر ماذا يقول • ونزل (مكار) من السرير وجثا على الارض وقال : اعف عني يا ايڤان ! ساعترف اني انا الذي قتل التاجر وسوف يطلق سراحك فتستطيع ان تذهب الى بيتك •

فقال ايڤان : ما اسهل الكلام عليك ، ولكني تحملت عنك ستا وعشرين سنة • فأين استطيع ان اذهب الآن ؟ ماتت زوجتي، ونسيني اولادي • وليس لدي ما اذهب اليه •••

لم ينهض مكار ، ولكنه ضرب راسه بالارض وقال : اغفر لي يا ايڤان • لم يكن ضرب السياط اصعب احتمالا من رؤيتك الان ••• ومع هذا كله فقد اشفقت عليّ ولم تخبر عني • اغفر لي اكراما لله ، فانني في اشد حالات البؤس •

وانخرط باكيا • وعندما سمع ايڤان بكاءه ، راح يبكي هو ايضا •

وقال : سيغفر الله لك ! لعلي أسوأ منك مئة مرة •

وخفف بذلك عن قلبه وزايله شوقه الى البيت ، ولم يعد يرغب في مغادرة السجن ، بل كان يرجو ان تحين ساعته الاخيرة •

واعترف مكار بجرمه على الرغم من ذلك كله • ولكن عندما صدر الامر باطلاق سراح ايڤان • وجدوه ميتا •

سنة ١٨٩٢ م

أسـير في القفقاس

(١)

كان ضابط اسمه (زيلين) يخدم في الجيش في القفقاس • تسلم ذات يوم رسالة من اهله • كانت من آمه التي كتبت اليه : لقد كبرت ، واحب ان اراك يا ولدي العزيز قبل ان اموت • تعال وودعني وادفني ، ثم عد ، بمشيئة الله ، الى الخدمة ، وليسبغ عليك نعمته ، وقد وجدت لك بنتا عاقلة طيبة وعندها شيء من الاملاك • اذا احببتها ، تزوجها وابق في البيت •

فكر زيلين في الامر مليا ، فقد كانت العجوز تتدهور حالها سريعا ولعل فرصة اخرى لن تواتيه لرؤيتها على قيد الحياة • فخير له أن يذهب • واذا كانت البنت جميلة ، فلماذا لا يتزوجها ؟

ذهب الى عميده واستحصل على اجازة وودع رفاقه • وتأهب للرحيل •

وكانت الحرب مندلعة في القفقاس • ولم تكن الطرقات آمنة ليلا او نهارا • واذا ما غامر واحد من الروس ان يخرج من حصنه ماشيا او راكبا حصانه فان التتر يقتلونه او يأخذونه الى الجبال • فجرى ترتيب الامر ان تخرج مفرزة من الجند من حصن الى حصن لمواكبة المسافرين من نقطة الى نقطة •

كان الوقت صيفا . وتأهبت قافلة البضائع تحت حماية الحصن وخرج الجند . وسار الجميع في الطريق . وكان (زيلين) على صهوة جواده وقد وضع اشياء في عربة من عربات القافلة . وكان عليهم ان يقطعوا ستة عشر ميلا . سارت القافلة الهوينا . وكان الجنود يتوقعون احيانا ، وقد تنخلع عجلة احدى العربات ، وقد يحرن احد الخيول ، فيجب عند ذاك ان ينتظر الجميع .

وجاوزت الشمس الظهيرة ، ولم يقطعوا نصف المسافة . الغبار يملأ الجو ، والحر شديد والشمس لاذعة ، وليس ثمة ملتجأ يأوون اليه في تلك البادية الجرداء المحيطة بهم ــ الخالية من اية شجرة او شجيرة .

وتقدمهم (زيلين) على حصانه ثم توقف بانتظار ان تلحق به القافلة ، ثم سمع البوق يصدح خلفه علامة لوقوف الجماعة . ثم راح يفكر في نفسه : اليس من الافضل ان ارحل وحدي ؟ حصاني اصيل واذا ما هاجمني التتار فانني استطيع الفرار عليه . ولكن من الحكمة ان انتظر .

ولما كان جالسا يتأمل ، تقدم اليه الضابط كوستيلين وهو يحمل بندقية وقال له : هيا يا زيلين ، دعنا نرحل وحدنا . انه شيء رهيب . وانا اتضور جوعا ، والحر فظيع . وقميصي يقطر عرقا .

كان (كوستيلين) رجلا ضخما قويا والعرق يسيل على وجهه الاحمر . فكر (زيلين) ثم سأله : هل بندقيتك محشوة ؟

ــ نعم ، هي كذلك .

ــ حسنا ، لنذهب ، ولكن بشرط ان نبقى معا .

ومضى الاثنان في الطريق عبر السهل الفسيح وهما يتحدثان ولكنهما منتبهان يراقبان . كلا يجيبين على مسافه بعيدة • ولكن بعد ان قطع السهل ، صار الطريق يخترق واديا بين تلين فقال زيلين: خير لنا ان نصعد هذا التل ونلقي نظرة حولنا ، والا داهمنا التتار قبل ان ننتبه اليهم •

ولكن كوستيلين اجابه : وما فائدة ذلك ؟ دعنا نواصل سيرنا • الا ان زيلين لم يوافق • فقال : كلا ، انتظر انت ههنا اذا أحببت ، ولكنني ساذهب لالقي نظرة حولنا •

فادار حصانه الى الشمال ، نحو اعلى التل • وكان فرس صيد • فحمله الى سطح التل كأنه يمتلك اجنحة • (اشتراه بمئة روبل عندما كان مهرا في قطيع وروّضه هو نفسه) • وما كاد يصل قمة التل حتى راى ثلاثين تتريا لا يبعدون اكثر من مئة ذراع عنه • فاستدار حالما لمحهم ولكن التتار راوه ايضا واندفعوا خلفه باقصى سرعه وقد اخرجوا بنادقهم وهم ينطلقون • وهبط (زيلين) باقصى ما يستطيع حصانه ان يجري وهو يصيح على كوستيلين : حضّر بندقيتك !

وقال زيلين لحصانه : اخرجني من هذه الورطة ، يا حبيبي ، لا تكب ، لانك ان فعلت ذلك ، انتهى كل شيء • واذا ما وصلت البندقية فانهم لا يستطيعون ان يأخذوني اسيرا •

ولكن (كوستيلين) لم ينتظر بل ولى الادبار نحو الحصن بأقصى سرعة عندما لمح التتار ، وراح يسوط حصانه يمينا مرة وشمالا مرة اخرى ، ولم ير منه في الغبار سوى ذيله المتحرك •

ووجد (زيلين) ان رصده لم يكن مجديا وان البندقية قد راحت هدرا . فماذا يستطيع ان يفعل ولا شيء لديه سوى سيفه ؟ فادار حصانه نحو الخيمة املا في النجدة . ولكن ستة تتريين اندفعوا لقطع الطريق عليه . كان حصانه ممتازا ولكن خيلهم افضل فسدوا الطريق عليه . وحاول ان يلجم حصانه ويستدير الى جهة اخرى ولكن الحصان كان سريعا جدا فلم يستطع ايقافه . فاندفع نحو التتار . ورأى تتريا احمر اللحية ، على جواد ادهم وبندقيته مرفوعة وهو يصرخ ويكشر عن اسنانه .

ففكر زيلين : آه ! انا أعرفكم ؛ انكم شياطين ! اذا ما اخذتموني حيا ، سوف تلقونني في حفرة وتجلدونني . فلن اسلم نفسي حيا !

امتشق حسامه واندفع نحو التتري الاحمر اللحية وهو يفكر : اما سأقتله رشقا واعيقه بسيفي .

كان على بعد خطوات منه عندما اطلقوا النار عليه من الخلف فاصيب حصانه الذي سقط بكل ثقله والقى زيلين على الارض .

حاول ان ينهض ولكن تتريين كريهين انقضا عليه وصارا فوقه وربطا يديه من الخلف . وحاول ان يلقيهما عنه ولكن ثلاثة آخرين وثبوا من خيولهم وشرعوا يضربون راسه باعقاب بنادقهم . فغشيت عيناه وهوى على ظهره . فامسكوا به وتناولوا حزام سرج شدوا به يديه الى الخلف وربطوهما بحبل . وخلعوا قبعته ونزعوا حذاءه وفتشوه جميعا ومزقوا ثيابه واخذوا نقوده وساعته .

التفت زيلين الى حصانه • كان المسكين مستلقيا على جنبه كما سقط يصارع بجهد ، وارجله في الهواء ، غير قادر ان يمس الارض •

فقد كان في راسه ثقب ودم اسود ينهمر وقد تحول التراب الى وحل مسافة قدمين حوله •

ذهب واحد من التتار الى الحصان وصار يفك السرج • وكان الحصان ما يزال يرفس ، فاستل خنجرا وقطع قصبته الهوائية • وصار صفير يخرج من حنجرته ، وانتفض انتفاضة واحدة ثم همد•

واخذ التتار السرج والجل ، المزركش الذي يغطيه ، وركب التتري الاحمر اللحية حصانه ورفع الاخرون (زيلين) على السرج خلفه • وربطوه بحزام التتري لئلا يسقط ، ثم انطلق الجميع نحو التـــلال •

هكذا جلس (زيلين) وهو يترنح من جانب الى جانب ورأسه يرتطم بظهر التتري النتن • ولم يستطع ان يرى شيئا سوى الظهر المفتول العضل والرقبة ذات الاعصاب ، وقفا العنق الازرق الحليق•

كان رأس زيلين جريحا • وجف الدم على عينيه • ولم يكن بوسعه ان يغير موضعه على السرج ولا ان يمسح الدم • فقد كانت ذراعاه مربوطتين بقوة شديدة بحيث تألمت عظام الترقوة •

وراحوا يصعدون تلالا ويهبطون تلالا ، مسافة طويلة ، حتى بلغوا نهرا خاضوه وجاءوا الى طريق يعبر واديا •

حاول (زيلين) ان يرى اين كانوا يسيرون ولكن اجفانه كانت ملتصقة بالدم ، ولم يكن يستطيع الالتفات • •

وبدا الشفق يهبط ، ثم عبرو نهرا آخر وصعدوا سفح تــل صخري • تناهت ايهم من هناك رائحة دخان ، وعواء كلاب • لقد وصلوا قرية تترية • ونرجل التتار عن خيولهم • واقبل اطفال تتر ووقفوا حول (زيلين) ، يزعقون مبتهجين ويرجمونه بالحجارة •

طرد التتري الاطفال وانزل زيلين عن الحصان • ونادى احد رجاله ، وكان بارز الوجنتين ، لا يلبس شيئا سوى ثوب مشقوق ابان عن صدره العاري • وأجاب النداء • فالقى التتري اليه امره• فذهب ثم احضر اصفادا : قطعتان غليظتان من خشب البلوط ربطت فيهما حلقات من حديد ، وفي احدى الحلقات مشبك وقفل •

فكوا ذراعي (زيلين) وربطوا القيد في ساحة وجروه الى مخزن حبوب او حظيرة ، القوه فيها وغلقوا الباب •

وقع (زيلين) على كوم من سماد • ظل مستلقيا عليه مدة ، ثم تحسس المكان حوله فوجد مكانا لينا ، مريحا ، استقر عليه •

(٢)

لم ينم (زيلين) طوال تلك الليلة(٢) قط • كانت الليالي قصيرة في ذلك الوقت من السنة ، وسرعان ما ظهر نور النهار من احــد الشقوق في الجدار ، فنهض وصار يحفر باظفاره لتوسيع الشق ، ثم راح يختلس النظر الى الخارج •

رأى خلال الشق طريقا يؤدي الى اسفل التل ، والى يمينه ثمــة كــوخ تتــري وقربــه شجرتــان وكلــب اسود نائم في العتبة ، وعنز وجداؤها تتحرك من مكان الى مكان وتهز ذيولها ،

ثم رأى شابة تترية في ثوب طويل ، فضفاض فاقع الالوان ، وسراويل وحذاء طويل يبين من تحته • وقد لفت معطفاً فوق رأسها، وحملت عليه جرة معدنية كبيرة مليئة بالماء وتقود بيدها طفلا صغيراً ، حليق الرأس • لا يلبس شيئاً سوى ثوب ، مرت في الطريق وهي تحافظ على توازنها وعضلات ظهرها ترتعش • واوصلت الماء الى الكوخ • وما لبث ان خرج تتري الامس الاحمر اللحية في رداء حريري طويل وقد تحزم عليه ، وتدلى الى جانبه خنجر ذو مقبض فضي ، وعلى قدميه العاريتين حذاء ، ويعتمر قبعة طويلة سوداء من جلد الغنم ، القاها الى مؤخرة راسه • خرج وتمطى ومسد لحيته الحمراء ثم وقف برهة واصدر امرا الى خادمه ومضى •

ثم مر صبيان يركبان حصانين وقد اورداهما الماء وما زال خطماهما مبللين • وخرج اولاد حليقو الرؤوس يركضون بلا سراويل ولا يلبسون شيئاً سوى قمصان • تجمعوا وجاءوا الى الحظيرة ، والتقط احدهم عوداً وراح يدسه في الشق • صاح (زيلين) فصرخ الاولاد وفروا ، وركبهم تلتمع وهم يركضون •

كان (زيلين) شديد العطش : وقد جف بلعومه من الظمأ • وراح يفكر : لو انهم يأتون ويلقون نظرة عليّ !

ثم سمع احدا يفتح الحظيرة • دخل ذو اللحية الحمراء ومعه رجل اخر ، اسمر ، اصغر منه جسما ، اسود العينين ، احمر الخدين، قصير اللحية ، بشوش الوجه ، دائم الابتسام • ثيابه افخر من صاحبه • يلبس رداء من حرير ازرق موشى بالذهب ، وفي حزامه

خنجر كبير من الفضة ، وخف من جلد مراكشي مشغول بالفضه ودونهما حذاء سميك ويعتمر قبعه بيضاء من جلد الغنم •

دخل التتري الاحمر اللحية ، وغمغم بشيء كالمغتاظ ، ووقف مستندا الى عضادة الباب ، يلعب بالخنجر وينظر كالذئب شزرا الى زيلين ، وكان الرجل الاسمر نشيطا ، سريع الحركة كانه على نوابض • تقدم الى (زيلين) وجلس القرفصاء امامه وضربه بكفه على كتفه • وبدأ يتكلم سريعا بلغته • وبانت اسنانه ، وظل يغمز ويطقطق بلسانه ويكرر : روسي طيب ، روسي طيب •

ولم يكن بوسع (زيلين) ان يفهم كلمة ولكنه قال : اشرب ! اعطني ماء لأشرب !

ضحك الرجل الاسمر وقال : « روسي طيب » • وراح يواصل الكلام بلسانه •

أشار (زيلين) بشفتيه ويديه انه يريد شيئا ليشرب •

فهم الرجل الاسمر وضحك ، ثم نظر خارج الباب ونادى احدا :

ـــ دينا !

ودخلت طفلة صغيرة تركض • كانت في نحو الثالثة عشرة ، نحيلة ، هزيلة ،تشبه التتري الاسمر في وجهها •من الجلي انها ابنته• كانت عيناها ايضا سوداوين صافيتين ، ووجهها جميلا ، تلبس ثوبا طويلا ازرق ، عريض الاردان ، بلا حزام • كانت حاشية ثوبها ، من الامام ، والاكمام مزركشة باللون الاحمر • وتلبس سراول وخفين وفوق الخفين حذاء سميكا عالي الكعبين ، وتضع حول

رقبتها عقدا من النقود الفضية الروسية • كانت حاسرة ، وشعرها اسود مجدولا بشريط ، وقد زين بضفيرة من ذهب ونقود من فضة •

القى اليها والدها امرا فمضت راكضة وعادت بابريق من معدن • قدمت الماء الى (زيلين) وجلست رابضة بحيث صارت ركبتاها بعلو راسها ، وقد اتسعت عيناها وهي تراقب (زيلين) يشرب الماء كأنه حيوان بري •

وعندما اعاد (زيلين) الابريق الفارغ اليها ، وثبت الى الخلف فجأة مثل عنز برية ، مما جعل والدها يضحك • وارسلها لجلب شيء آخر • تناولت الابريق وخرجت راكضة وعادت بشيء من خبز غير مختمر على طبق مستدير ، وعادت تجلس القرفصاء وتنظر بعينين محملقتين •

ثم خرج الاثنان • واقفل الباب •

بعد برهة عاد التتري الاسمر وقال : هيا الى الزعيم ، هيا اليـه !

لم يكن الرجل يعرف الروسية • وكل ما استطاع ان يفهمه زيلين هو انه أمر ان يذهب الى مكان ما •

وتبع (زيلين) الرجل ولكنه كان يظلع لان الاصفاد تقيد قدميه فلم يستطع ان يخطو خطوة بيسر • ولما خرج من الحظيرة رأى قرية تترية من نحو عشرة بيوت ومبنى ذي قبة صغيرة • وقد وقفت ثلاث افراس مسرجة امام البيوت وقد امسك صبيان صغار بأعنتها ، وخرج التتري الاسمر من ذلك البيت واومأ بيده الى (زيلين) ان يتبعه ، ثم ضحك وقال شيئا بلغته ثم عاد الى البيت •

ودخل زيلين • كانت الحجرة جيدة ، وقد سويت جدرانها بالطين ، ولدست لدى الجدار الامامي كومة من الافرشة الزاهية الاوان وقد حشيت بالريش • وغطيت الجدران الاخرى بالطنافس الفاخرة الثمينة في هيئة ستائر ، وقد علق عليها بنادق ومسدسات وسيوف مطعمة كلها بالفضة • وقريب الى احد الجدران موقد صغير بمستوى الارض • وكانت الارض نظيفة كانها ميدان دراسة حنطة • وفرشت فسحة واسعة في احدى الزوايا باللباد الذي وضعت عليه ابسطة وعلى الابسطة وسائد حشيت بالوبر وجلس على الوسائد الخمس خمسة رجال ، الاسمر وذو اللحية الحمراء وثلاثة ضيوف • كانوا يلبسون خفافا ، ووضع كل واحد منهم وسادة وراء ظهره • وامامهم خبز دخن على طبق مستدير ، وزبد ذائب في وعاء ، وابريق من (البوظة) اي النبيذ التتري • اكلوا الخبز والزبد بايديهم •

وثب الرجل الاسمر وامر ان يوضع (زيلين) في جانب من الحجرة ، على ارض عارية وليس على بساط ، ثم عاد الرجل وجلس على البساط وقدم خبز الدخن والنبيذ الى ضيوفه • واجلس الخادم (زيلين) ، ونزع الخادم حذاءه ووضعه قرب الباب حيث الاحذية الاخرى ، وجلس قرب اسياده على اللباد يراقبهم وهم يأكلون ، ويلعق شفتيه •

أكل الرجال حتى شبعوا ، وجاءت امرأة في ثياب كثياب البنت ــ ثوب طويل وسراويل ومنديل على راسها ــ اخذت ما بقي ، وجلبت طستا انيقا وابريقا له فم رفيع • غسل الرجال ايديهم •

وتحدثوا قليلا ، ثم التفت احد الضيوف الى زيلين وراح يحدثه بلغته الروسية •

وقال « اسرك القاضي » واشار الى التتري الاحمر اللحية •

« وقد وهبك القاضي الى مراد • » مشيرا الى الرجل الاسمر

« مراد الآن سيدك • »

كان زيلين ساكتا • وراح مراد يتكلم وهو يضحك مشيرا الى زيلين وهو يكرر قوله : جندي روسي ، روسي طيب •

وقال المترجم : يأمرك ان تكتب الى اهلك تخبرهم ان يرسلوا فدية ، وحالما يصل المال ، سوف يطلق سراحك •

فكر (زيلين) لحظة ثم قال : وما مقدار الفدية التي يطلب :

تحدث الرجال برهة ثم قال المترجم : ثلاثة الاف روبل •

فقال زيلين : كلا : لا استطيع ان ادفع هذا المبلغ •

وهب مراد واقفا وهو يلوح بذراعيه مخاطبا زيلين ، ظانا ، كالسابق ، انه يفهمه • فقال المترجم : كم تدفع ؟

فكر (زيلين) وقال : خمس مئة روبل •

وراح الرجال على اثر ذلك يتحدثون معا بسرعة فائقة • واخذ مراد يصيح بوجه صاحب اللحية الحمراء ويهذرم(*) بسرعة جعلت اللعاب يتطاير من فمه ، ولم يفعل ذو اللحية الحمراء شيئا سوى انه اخذ يغمض عينيه نصف اغماضة ويطقطق بلسانه •

وهدأوا بعد برهة ثم قال المترجم : خمس مئة لا تكفي الرجل، لانه دفع مئتي روبل من اجلك • فقد كان القاضي مدينا له ،

(*) الهذرمة : السرعة في القراءة والكلام

واخذك بدلا من ذلك . ثلاثة الاف روبل ! اقل من ذلك لا تنفع . اذا رفضت ان تكتب ، سوف تلقى في حفرة وتجلد بالسوط .

فكر زيلين : ايه ! كلما كثر خوف المرء منهم ، ازداد الامر سـوء .

فوثب قائما وقال : قل لذلك الكلب اذا حاول اخافتي فاني لن اكتب ابدا ، ولن يحصل على شيء . لم اخف منكم ايها الكلاب قط ، ولن اخاف ابدا !

ترجم لهم ذلك وعادوا جميعا الى الكلام مرة واحدة .

وهذرموا طويلا ثم قفز الرجل الاسمر وجاء الى زيلين وقال : دازكيت روس ، دزكيت روس ! (أ ي روسي شجاع) وضحك وقال شيئا للمترجم الذي ترجم : الف روبل سترضيه ؟

ولكن زيلين تمسك برايه : لن اعطي اكثر من خمس مئة : واذا قتلتني لن تحصل على شيء ابدا .

وتحدث التتار برهة . وارسلوا خادما ليحضر شيئا ، وظلوا ينظرون الى زيلين تارة والى الباب تارة اخرى . وعاد الخادم يتبعه رجل قوي ، حافي القدمين ، بأسمال بالية ، في رجليه أصفاد .

فغر (زيلين) فمه من هول المفاجأة : انه كوستيلين . هـو ايضا القي القبض عليه وضع الاثنان جنبا الى جنب ، واخذ كـل منهما يحدث صاحبه بما حدث . وكان التتار ينظرون اليهما صامتين وهما يتحدثان . قص (زيلين) ما حصل له . وتحدث كوستيلين كيف كبا جواده واخطأت بندقيته الاصابة ، فأسره مراد هذا نفسه .

وثب مراد واشار الى كوستيلين وقال شيئا ٠ ترجمه المترجم انهما الان يرجعان الى سيد واحد وان الذي يدفع الفدية اولا يطلق سراحـــه اولا ٠

ثم قال لزيلين : يا هذا ٠ انت غضبت ولكن رفيقك هادىء ٠ لقد كتبت الى اهله وسيرسلون خمسة الاف روبل ٠ ولذلك سينال طعاما جيدا ومعاملة جيدة ٠

فأجاب زيلين : يستطيع رفيقي ان يفعل كما يشاء ، فلعلـــه غني ٠ اما انا فلست كذلك ٠ فيجب ان يكون المبلغ كما قلـــت ٠ اقتلني اذا اردت ـــ لن تحصل على شيء بذلك ٠ ولكنني لن اكتب اكثر من خمس مئة روبل ٠

كانوا صامتين ٠ وقفز (مراد) فجأة ، واحضـــر صندوقـــا صغيرا واخرج قلما وحبرا وقطعة ورق ، قدمها الى زيلين ، وضربه على كتفه واشار اله ان يكتب ٠ لقد وافق على الخمس مئة روبل ٠

فقال زيلين للمترجم : انتظر قليلا ! قل له ان يحسن اكساءنا والملابس والاحذية وان يبقينا معا ، لان ذلك اكثر بهجـــة لنا ٠ ويجب ان يخلع هذه القيود عن ارجلنا ٠

ونظر زيلين الى سيده وضحك ، وضحك سيده ايضا عندما سمع المترجم وقال : سوف اقدم لهما افضل الملابس : عباءة وحذاء يليق بيوم الزواج ٠ وسوف اطعمهما كالامراء واذا ارادا فليمكثا معا في الحظيرة ٠ ولكن لا استطيع ان افك قيودهما والا سيهربان٠ على انها سوف تنزع عنهما ليلا ٠

ووثب ولطم زيلين على كتفه وهتف : انت طيب ، انا طيب !

كتب (زيلين) الرسالة ولكنه كتب عنوانا خاطئا لئلا تصل الى آهله ، وقد فكر في نفسه : سأهرب !

اعيد زيلين وكوستيلين الى الحظيرة واعطي قليلا من الذرة وابريق ماء وشيئا من الخبز ، وعباءتين عتيقتين وحذاءين عسكريين مستهلكين — من الواضح انهما اخذا من جثث الجنود الروس • وفكت القيود ليلا من اقدامهما واغلقت الحظيرة عليهما •

(٣)

عاش زيلين وزميله على هذا النحو شهرا كاملا • وكان السيد يضحك دائما ويقول « انت ، ايفان طيب ، وانا مراد طيب ! » ولكن طعامهما كان رديئا اذ لم يعطهما شيئا سوى اقراص خبز غير مختمر من طحين الدخن ، وكان احيانا يقدم لهما عجينا غير مخبوز •

وكتب كوستيلين مرة اخرى الى اهله • ولم يفعل شيئا سوى الاستغراق في تفكير كئيب وانتظار وصول المال ، ويمكث في الحظيرة اياما راقدا او يعد الايام حتى يمكن ان تصل رسالة •

كان (زيلين) يعرف ان رسالته لن تصل احدا ولم يكتب رسالة اخرى • وفكر : من اين يمكن لوالدتي ان تحصل على مال كاف من اجل ان تفتديني ؟ فهي تعيش بما ارسله لها ، واذا كان عليها ان تجمع خمسمئة روبل فانها ستتحطم • سأهرب بعون الله !

ولذا ظل مترقبا يخطط في كيفية الهرب يتمشى ويصفر او يجلس ويصنع دمى من طين او ينسج سلالا من الاغصان لانه كان بارعا في استعمال يديه •

وصنع ذات مرة دمية لها انف ويدان ورجلان وعليها ثوب تتري • وضعها على السطح • وعندما خرجت النساء التتريات لجلب الماء رأتها (دينا) ابنة السيد ونادت اللواتي انزلن جرارهن ووقفن ينظرون ويضحكن • انزل (زيلين) الدمية وقدمها اليهن • تضاحكن ولكن لم تجرؤ واحدة منهن على اخذها • فوضعها على الارض ودخل الحظيرة ، ينظر ليرى ماذا يحدث •

ركضت (دينا) نحو الدمية وتلفتت حولها وتناولتها ثم هربت بهـــا •

نظر في الصباح عند شروق الشمس ، رأى (دينا) تخرج من البيت وتجلس على العتبة مع دميتها التي البستها ثيابـــا حمـــرا وهدهدتها كأنها طفل رضيع واخذت تغني لها ترنيمة تتريـــة •• خرجت امرأة تترية زجرت (دينا) وخطفت الدمية منها وهشمتها ، ثم ارسلت البنت لانجاز عمل من الاعمال •

ولكن (زيلين) صنع دمية اخرى ، احسن من الاولـــى ، أعطاها الى (دينا) • وجلبت دينا ذات يوم ابريقا صغيرا ووضعته على الارض وجلست تحدق الى زيلين وتبتسم مشيرة الى الابريق•

وتساءل زيلين في نفسه : « ما الذي يبهجها هكذا ؟ » ـــثم تناول الابريق وهو يظنه ماء ولكن وجده لبنا فشرب اللبن وقال : ما اشد ما ابهجها ذلك ! فقالت : طيب ، ايفان ، طيب ! ووثبت وصفقت بيديهاثم تناولت الابريق ومضت هاربة ، وصارت بعـــد ذلك تجلب له شيئا من اللبن خفية كل يوم •

يصنع التتار نوعا من الجبن من حليب المعز ويجففونه على سطوح بيوتهم • وكانت (دينا) تجلب له شيئا من هذا الجبن

خلسة . وذبح مراد ذات يوم خروفا فجلبت له قطعة لحم في كمها . كانت تلقي له الاشياء وتهرب . هبت ذات يوم عاصفة هوجاء وانهمر المطر مدرارا طوال ساعة كاملة . فتكدرت السواقي . وارتفع ماء المخاضة الى سبعة اقدام . وغدا التيار قويا حتى جرف الصخور . وصارت السيول جداول في كل مكان . ولم ينقطع هزيم الرعد فوق التلال . وعندما هدأت العاصفة ، كان الماء يجري سيولا في دروب القرية .

واستدان (زيلين) من سيده سكينا ، صنع بها اسطوانة صغيرة وقطع الواحا صغيرة ، وصنع دولابا اي عجلة ، ثبت عليه دميتين ، دمية على كل جانب . وجلبت له الفتيات الصغيرات قطعا من قماش جعل منها ثيابا للدميتين : واحدة بهيئة فلاحة والاخرى بهيئة فلاح . ثم ثبتهما في مكانيهما . ونصب الدولاب بحيث جعلته الساقية يدور وراحت الدميتان ترقصان .

واجتمعت القرية كلها حوله : الاولاد والبنات ، الرجال والنساء خرجوا جميعا وصاروا يطقطقون بالسنتهم .

— روسي ! ايفان !

وكان لدى (مراد) ساعة مكسورة . دعا زيلين ليراها .

فقال زيلين : هاتها ، سأصلحها لك .

وفك اجزاءها بالسكين وشخص الخلل فيها ثم اعاد تركيبها وراحت الساعة تشتغل بنحو جيد .

وسر صاحبها بذلك فقدم له احد ارديته المهلهلة وكان على زيلين قبوله ، اذ يمكنه استعماله غطاء في الليل .

وانتشرت سمعة (زيلين) • فجاء تتار من قرى بعيدة يحملون تارة ترباس بندقية او مسدس ، وتارة اخرى ساعة ليصلحها • وقدم له سيده بعض الأدوات ـ كماشة ومفكا ومبردا •

مرض ذات يوم أحد التتار فجاءوا الى زيلين قائلين له : « تعال ، عالجه ! » ولم يكن زيلين يعرف شيئا في الطب ولكنه ذهب معهم ليلقي نظرة وفكر في نفسه : لعله سيشفى على اية حال •

وعاد الى الحظيرة • ومزج شيئا من الرمل بالماء ثم همس بحضور التتار ببضع كلمات عليه واعطاه الى المريض ليشربه • ومن حسن المصادفة تحسن التتري وشفي •

واخذ (زيلين) يفهم شيئا قليلا من لغتهم • وصار بعض التتار يألفونه • وكانوا اذا ارادوه نادوه : ايفان ! ايفان ! على ان اخرين كانوا ما يزالون ينظرون اليه شزرا كأنه حيوان وحشي •

وكان التتري ذو اللحية الحمراء يكرهه • وكان كلما راه قطب وصد عنه او شتمه • وكان هناك ايضا رجل مسن ولكنه لا يسكن القرية بل اعتاد ان يأتي من اسفل التل ، كان زيلين يراه في اوقات معينة قادما من هناك • كان قصير القامة ويلف قطعة قماش بيضاء على راسه وكانت لحيته وشاربه في مثل بياض الثلج وليست طويلة بل مقصوصة • كان وجهه كثير التجاعيد احمر بلون القرميد ، وانفه معقوفا كنقار الصقر ، وتشع القسوة من عينيه الرماديتين ، ولم يكن في فمه اسنان سوى نابين • يسير متوكئا على عصا وينظر حوله كأنه ذئب • وكان اذا راى زيلين يجأر غاضبا ويصد عنه •

نزل (زيلين) التـل ذات يوم ليرى اين كان يسكن ذلك العجوز • هبط الدرب ووصل الى بستان صغير يحيطه جدار من صخر ورأى وراء الجدار اشجار كرز ومشمش وكوخا سطحـه منبسط • اقترب اكثر فرأى خلايا نحل من اغصـان مضفـورة كالسلال والنحل يطير حولها ويطن • وقد جثا الشيخ على ركبتيه منشغلا باحدى الخلايا ، تمدد (زيلين) ليلقي نظـرة فقعقعـت اصفاده ، التفت الشيخ وزعق وخطف مسدسا من حزامه واطلق على زيلين الذي استطاع ان يحتمي وراء السور الحجري •

ذهب الشيخ يشكو (زيلين) لدى سيده • فاستدعى زيلين وقال له ضاحكا : لمـاذا ذهبت الى بيت الشيخ ؟

فاجاب زيلين : لم امسسه بضر ، انما اردت فقط ان ارى كيف يعيش •

فاعاد السيد ما قال زيلين • ولكن الشيخ كان غاضبـا ، يهمس كالافعى ويهذرم ، ويكشر عن انيابه ويهز قبضتيه مهـددا زيلين •

لم يستطع زيلين ان يفهم شيئا ولكنه حسب ان الشيخ كان يقول لمراد انه ينبغي الا يبقي احدا من الروس في القرية • واخيرا مضى الشيخ ، فسأله زيلين من هذا الشيخ ؟ •

فقال سيده : انه رجل عظيم ! انه اشجع رجالنا • قتل كثيرا من الروس • وكان غنيا فتزوج ثلاث نساء وصار له منهن ثمانية اولاد • كانوا يعيشون في قرية واحدة • ثم هاجمهم الروس ودمروا القرية وقتلوا سبعة من ابنائه • ولم يبق الا واحـد ، استسلـم

للروس . فذهب الشيخ وسلم نفسه ايضا ، وعاش بين الروس ثلاثة اشهر ، وجد في نهايتها ابنه وقتله بيديه ثم هرب . ولكنه ترك الحرب بعد ذلك وحج الى مكة ولهذا صار يضع العمامة على راسه . وهو لا يحبك . ولا يريدك ولكنني دفعت مالا من اجلك وانني بدأت احبك يا ايفان . ثم ضحك وقال بالروسية : انت يا ايفان طيب ، وانا مراد ، طيب .

(٤)

عاش (زيلين) على هذا النحو شهرا .وكان يتسكع في اثناء النهار في القرية او يشغل نفسه ببعض الصناعات اليدوية ، اما في الليل عندما يهدأ كل شيء فقد كان يحفر في ارض الحظيرة . ولم يكن الحفر مهمة يسيرة ، بسبب الاحجار ، ولكن يحفر فيها بالمبرد واخيرا استطاع ان يصنع نفقا تحت الجدار يكفي ان يخرج منه .

وفكر في نفسه : لو انني اعرف طبيعة الارض واي اتجاه اسلك ! ولكن لن يخبرني احد من التتار بذلك .

فاختار يوما كان سيده بعيدا عن البيت ، فانطلق بعد الغداء ليصعد التل الذي وراء القرية ويلقي نظرة حوله . ولكن سيده كان يصدر اوامره قبل ان يغادر البيت الى ولده ان يراقب (زيلين) ولا يغفل عنه لحظة . فركض الصبي وراء زيلين صائحا : لا تذهب. ابي لا يسمح بذلك . سانادي الجيران اذا لم تعد .

وحاول (زيلين) اقناعه وقال : لن اذهب بعيدا . اردت فقط

أن اتسلق ذلك التل ، اريد ان اجد عشبة لشفاء الناس ، تعال معي اذا أحببت • كيف استطيع الهرب وهذه القيود في رجلي ؟ ساصنع لك غدا قوسا وسهاما •

فاقتنع الصبي بهذا • وسار الاثنان • ويبدو التل غير بعيد القمة ولكن من الصعوبة المشي والقيود في رجليه • ظل زيلين يمشي ويمشي ولم يكن عليه ان يفعل غير ذلك حتى يصل القمة • فجلس ولاحظ كيف تتجه الارض • كان الى الجنوب وراء الحظيرة واد فيه قطيع من الخيل يرعى وفي اسفل الوادي يمكن ان يرى المرء قرية اخرى • وراء ذلك تل اشد انحدارا وتل اخر وراءه • وبين التلين غابات ، وابعد من ذلك جبال اعلى فأعلى • وكان اعلاها جميعا مغطى بالثلج الابيض كالسكر ، وكانت قمة ثلجية تشمخ فوق الجميع • وكان الى الشرق والى الغرب تلال اخرى شبيهة بهذه التلال ، ويرتفع هنا وهنالك دخان من القرى التي في الوديان • فقال في نفسه : « آه ، انها كلها بلاد تترية » • فالتفت الى الجانب الروسي ورأى تحته نهرا ورأى القرية التي كان فيها محاطة ببساتين صغيرة واستطاع ان يرى نساء كالدمى الصغيرة جالسات على ضفة النهر يشطفن ملابس • وكان وراء القرية تل اوطأ من الذي الى الجنوب ، ووراءه تلان آخران تكسوهما غابات كثيرة وبين التلين سهل منبسط تشوبه زرقة ، وبعيدا وراء السهل شيء يشبه سحابة من دخان • وحاول (زيلين) ان يتذكر اين تشرق الشمس وتغرب ، عندما كان في الحصن ، فوجد انه لم يكن مخطئا : لابد ان يكون الحصن الروسي في ذلك السهل • وعليه ان يشق طريقه بين هذين التلين اذا ما اراد الهرب •

مالت الشمس الى المغيب ، وتحولت الجبال الثلجية البيض حمرا ، وصارت التلال القاتمة اشد قتامة . وارتفع الضباب من الوادي الصغير ، وبدا الوادي الكبير ، الذي افترض فيه الحصن الروسي كأنه اشتعل بوهج الشمس . فنظر زيلين متأملا . وبدا كأن شيئا في الوادي يرتعش مثل دخان من مدخنة ، فتأكـد ان الحصن الروسي في ذلك الاتجاه .

وغربت الشمس . وارتفع الاذان . وسيقت القطعان الـى البيوت وكانت الأبقار تخور وظل الصبي يقول : عد الى البيت ! ولكن زيلين لم يشعر بالرغبة في الرجوع .

ولكنهما رجعا اخيرا ، ففكر زيلين : « حسنا ، بعد ان عرفت الطريق ، فقد آن الاوان للنجاة . » وفكر بالهرب في تلك الليلة . كانت الليالي مظلمة ، فقد كان القمر في المحاق ، ولكن لسوء الحظ عاد التتار الى بيوتهم في تلك الامسية . كانوا عادة يرجعون وهم يسوقون الماشية امامهم مبتهجين . ولكنهم هذه المرة لم تكن معهم ماشية . كان كل الذي جلبوه معهم الى القرية جثمان . احد التتار ــ أخا صاحب اللحية الحمراء ــ الذي قتل . عـادوا حزينـين متجهمين . وقد تجمعوا من اجل دفن الجنازة . وخرج زيلين ايضا ليرى ذلك .

كفنوا الجثة بقماش من الكتان من دون ان يضعوه في تابوت وحملوها خارج القرية ووضعوها على العشب تحت اشجار الدلب . وحضر رجل الدين والشيوخ ، خلعوا احذيتهم وجلسوا القرفصاء جنبا الى جنب قرب الجنازة .

جلس رجل الدين في الامام وخلفه الشيوخ الثلاثة في صف واحد وخلفهم جلس الرجال الاخرون • جلسوا مطرقين • واستمر الامر كذلك مدة طويلة ، حتى رفع رجل الدين راسه وقال : لا اله الا الله ! ثم اطرقوا مرة اخرى وعادوا الى صمتهم الطويل • وجلسوا هادئين لا يتحركون ولا يتكلمون •

ثم رفع رجل الدين راسه وقال : لا اله الا الله ! فقالوا جميعا : لا اله الا الله! وعادوا الى صمتهم مرة اخرى ، جالسين بلا حراك كالجنازة التي على العشب • ولم يسمع صوت سوى صوت اوراق اشجار الدلب التي يحركها النسيم • ثم اعاد رجل الدين الصلاة ، ونهضوا جميعا • ورفعوا الجنازة وحملوها الى حفرة في ارض • لم تكن الحفرة اعتيادية بل تجويف تحت الارض يشبه القبو • اخذوا الجنازة عند الاكتاف ومن الساقين وانزلوها بلطف ودسوها تحت الارض • واتوا بشيء من نبات الاسل الاخضر ووضعوه في الحفرة ، واسرعوا يهيلون التراب حتى تساوت بالارض ، ثم نصبوا حجرا قائما عند رأس القبر وسووا التراب ، وعادوا يجلسون في صف امام القبر ، صامتين مدة طويلة •

ونهضوا اخيرا وهم يقولون : لا اله الا الله !

واعطى ذو اللحية الحمراء مالا الى الشيوخ • ونهض هو ايضا ومضى الى البيت •

ورأى (زيلين) التتري الاحمر في صباح اليوم التالي يتبعه ثلاثة رجال يقودون مهرة من القرية ، وعندما وصلوا خارجها خلع ذو اللحية الحمراء عباءته وشمر عن أردانه فكشف عن ذراعين

قويين • ثم استل خنجرا راح يشحذه بحجر مسن • والقى الرجال الثلاثة الفرس على الارض وامسكوا برأسها فاحتز ذو اللحية الحمراء حنجرتها ، وراح يسلخ جلدها بيديه الكبيرتين • وجاء نساء وفتيات وبدأن يغسلن الاحشاء والباطن • وقطعت الفرس ونقلت الى الكوخ • واجتمعت القرية كلها في كوخ ذي اللحية الحمراء لتناول وليمة الجنازة •

استمر اهل القرية يأكلون لحم المهرة ثلاثة ايام ويصلون على الميت • كانوا مجتمعين في البيت • رآهم (زيلين) في اليوم الرابع عند وقت الغداء يتأهبون للمغادرة • اخرجت الخيول وتأهبوا وركب عشرة منهم (وكان ذو اللحية الحمراء بينهم) ومضوا ، ولكن (مراد) بقي في البيت • وكان الهلال جديدا والليل ما يزال مظلما • ففكر زيلين : آه ! هذه الليلة مناسبة للهرب •

واخبر (كوستيلين) بذلك ولكن كوستيلين كان واهن العزم •

فقال : كيف يمكن لنا ان نهرب • اننا لا نعرف حتى الطريق •

فقال زيلين : انا اعرف الطريق •

فقال كوستيلين : حتى اذا عرفته ، فاننا لا نستطيع ان نصل الحصن في ليلة واحدة •

قال زيلين : اذا لم تستطع ، فاننا سننام في الغابة ، انظر الى هنا ، لقد وفرت شيئا من الجبن • فما فائدة الجلوس هنا والاستغراق في تفكير كئيب ؟ اذا ارسلوا فديتك فخير على خير ، ولكن افرض انهم لم يستطيعوا جمع المبلغ ؟ التتر غاضبون اليوم لأن الروس قتلوا واحدا من رجالهم ، وانهم يتحدثون عن قتلنا •

فكر (كوستيلين) في الامر مليا : وقال : حسنا ، لنذهب •

زحف (زيلين) في داخل النفق وعرضه لكـي يستطيـع كوستيلين ايضا ان يخرج ، ثم جلس الأثنان ينتظران حتى يهدأ كل شيء في القرية •

وما ان هدأ كل شيء ، حتى زحف زيلين تحت الجدار وخرج ثم همس الى كوستيلين : تعال !

وزحف كوستيلين الى الخارج ولكنه عندما فعل ذلك تعلق حجر برجله فاثار ضجة • وكان عند السيد كلب حراسة شرس جداً، كلب أبقع ، اسمه (اولياشين) وقد اهتم زيلين باطعامه قبل مدة • سمع (اولياشين) الضوضاء وبدأ ينبح ويتواثب ، وصارت الكلاب الاخرى تفعل مثله • صفر (زيلين) اليه صفرة واهنة ورمى اليه بقطعة من الجبن • عرف (اولياشين) انه زيلين فهز ذيله وتوقف عن النبـاح •

ولكن السيد سمع الكلب وناداه مـن الكـوخ : اهـدأ يا اولياشين اهـدأ !

على أن (زيلين) صار يحك وراء اذني اولياشين فهدأ الكلب وصار يحتك بساقي زيلين ويهز ذيله •

جلس الاثنان مختبئين خلف الركن برهة ، وعاد السكون ثانية ، ما عدا خروفا عطس في احدى الزرائب ، وكان للماء خرير فوق صخور الوادي • وكان الظلام حالكا والنجوم في اعالـي السماء ، وقد بدا الهلال احمر وهو يميل الى الغـروب ووراء الهضبة ، ونهايتاه الى الاعلى • وكان الضباب في الوديان ابيض كالحليب •

نهض زيلين وقال لرفيقه : هيا يا صاحبي !

ومشيا وما كادا يخطوان بضع خطوات حتى سمعا الاذان يدعو الناس للصلاة في المسجد : بسم الله الرحمن الرحيـم — الله اكبـر !

فجلس الاثنان مختبئين وراء احد الجدران وانتظر طويـلا حتى مر الناس • وخيم الهدوء مرة اخرى •

وقال : ليكن الله معنا ! وعادا يمشيان مخترقين ساحة ونزلا سفح التل الى النهر وعبراه وسارا في الوادي •

كان الضباب كثيفا قريبا من الارض ، وكانت النجوم تتلألأ فوق رأسيهما • وكان (زيلين) يسير على هدي النجوم ، كان الجو باردا في الضباب والمشي سهلا ، سوى ان احذيتهما الطويلة لم تكن مريحة لانهـا باليـة ، مقطعة ، فخلع زيلين حذاءه ورمـاه وسار حافيا ، واخذ يقفز من صخرة الى صخرة ، ولكن كوستيلين صار يتلكأ بمشيه وراءه •

وقال : صرت امشي ابطأ فقد تقرحت قدماي من هذا الحذاء اللعـين •

فقال زيلين : اخلعه ! فسيكون المشي اسهل من دونـه • ومشى كوستيلين حافيا ، ولكن الامر ساء كثيرا فقد جرحـت الصخور قدميه مما جعله يتباطأ •

فقال زيلين : اذا جرحت قدماك فانهما سيشفيان ولكن اذا امسك بنا التتار فانهم سيقتلوننا • وهذا اسوأ طبعا !

ولم يجب (كوستيلين) ، بل واصل سيره متذمرا طوال الوقت • وسارا في الوادي مدة طويلة ، ثم سمعا كلابا تنبح الى اليمين • توقف زيلين وتلفت حوله ، وبدا يتسلق التل وهو يتحسس بيديه •

وقال : آه ! لقد سرنا بالاتجاه المغلوط وقد توغلنا بعيدا نحو اليمين • هذه قرية اخرى رأيتها من فوق التل • يجب ان نعود ونسير فوق ذلك التل الى اليسار ، الذي تغطيه غابة •

ولكن (كوستيلين) قال : انتظر دقيقة ! دعني استرد انفاسي • تمزق قدماي وصارا ينزفان دما •

فقال زيلين : لا بأس يا صديقي ! سيشفيان فورا • يجب ان تسير بخفة اكثر • هكذا !

وعاد زيلين يركض متجها الى الشمال صاعدا التل نحو الغابة • ولكن (كوستيلين) كان ما يزال متلكئا وراءه وهو يتأوه • وكان زيلين يقول له : صه ! ثم يواصل مسيره •

وصعدا التل ووجدا الغابة كما قال زيلين • ودخلاها وشقا طريقهما بين نبات العليق الذي مزق ثيابهما ، حتى بلغا دربا سارا فيه •

« توقف ! » سمعا وقع حوافر على الطريق فانتظرا واصغيا• كأنه وقع حوافر حصان ولكنه انقطع • ومشيا ، ثم عادا يسمعان وقع الحوافر • وعندما تريثا ، توقف • وزحف زيلين قريبا الى الصوت فرأى شيئا واقفا في الطريق اذ لم يكن الظلام وامسا • انه يشبه الحصان ولكنه لا يشبهه تماما ، وعليه شيء غريب لا يشبه الانسان • وسمعه يجأر • « ما هذا ؟ » صفر زيلين بلطف

فاندفع بعنف من الطريق الى الاجمة الكثيفة ، وامتلأت الغابة بصوت تكسر الاغصان كأن اعصارا كان يجتاح الاشجار ويكسر الاغصان .

ارتعب (كوستيلين) رعبا شديدا حتى التصق بالارض . ولكن زيلين ضحك وقال : انه (أيل) . الا تسمعه يكسر الاغصان بقرونه ؟ كناخائفين منه وهو الآن خائف منا .

ومضيا في سبيلهما . وكان (الدب الاكبر) ينحدر نحو الافول . واوشك الصباح ان يطلع ولم يعرف هل كانا سائرين في الطريق الصحيح ام لا . وقد ظن (زيلين) انه الطريق الذي جلبه منه التتار ، وانهما كانا ما يزالان على بعد نحو سبعة اميال من الحصن الروسي . ولكن لم تكن لديه علامة مؤكدة يسير بموجبها ، وفي الليل من اليسير ان يضل المرء طريقه . ووصلا بعد مدة الى فسحة مكشوفة . جلس (كوستيلين) وقال : افعل ما تشاء فأنا لا استطيع المسير ابعد من هذا ! قدماي لا تحملانني .

وحاول زيلين اقناعه .

فقال : كلا . لن اذهب . لا استطيع .

غضب زيلين واغلظ القول اليه .

— حسن اذن سوف اذهب وحدي . وداعا !

الا ان (كوستيلين) وثب وتبعه . وقطعا ثلاثة اميال اخرى . وكان الضباب في الغابة أشد كثافة ولم يستطيعا ان يريا على بعد ذراع امامهما . وخبا ضوء النجوم .

وما لبثا ان سمعا وقع حوافر حصان امامهما . سمعا السنابك تضرب الحصى . فانبطح (زيلين) ووضع اذنه على الارض .

وقال : اجل انه فارس يأتي نحونا !

وهربا من الدرب وكمنا بين الشجيرات وانتظرا • وزحف الى الطريق ورأى تتريا على ظهر جواد يسوق بقرة ويكلم نفسه • ومضى التتري في طريقه • فعاد زيلين الى كوستيلين •

— أبعده الله عنا • انهض ودعنا نمضي !

حاول (كوستيلين) ان ينهض ولكنه سقط على الارض •

وقال : لا استطيع ، والله لا استطيع • لم تبق عندي قوة •

كان كوستيلين ضخم الجثة ، ثقيلا ، وينضح عرقا غزيرا • وقد برد من الضباب ، والدم ينزف من قدميه فلم يعد يستطيع السير الا وهو يعرج •

وحاول (زيلين) ان يرفعه ولكن كوستيلين صرخ : آه ، ما اشد الالـــم !

فوجب قلب زيلين •

وقال : لماذا تصرخ ؟ ما يزال التتري قريبا • لابد انه سمعك !

وفكر في نفسه : انه مرهق حقا • ماذا افعل به ؟ لا يجوز ترك الرفيق •

وقال لصاحبه : حسنا اذن ، انهض واركب على ظهــري • ساحملك اذا كنت حقا لا تستطيع المشي •

وساعد كوستيلين ان يركب ووضع ذراعيه تحت وركيه ، ثم خرج به الى الدرب وهو يحمله •

وقال زيلين : حبا لله ، لا تخنقني بيديك ! تمسك بكتفي • والقى زيلين حمله ثقيلا • وكانت قدماه ايضا تنزفان دما ، وكان

منهكا . وكان ينحني بين آونة وآونة ليحسن توازن كوستيلين ، ويحركه الى الاعلى لكي يجلس افضل ثم يواصل سيره .

على ان التتري سمع كوستيلين فعلا وهو يصرخ . فقد سمع زيلين بغتة وقع حوافر تركض وصياحا بلغة التتر . فانقض بين الشجيرات وامسك التتري ببندقيته واطلق النار ولكنه لم يصبهما ، وصاح بلغته وانطلق على حصانه في الطريق .

فقال زيلين : لقد ضعنا يا صديقي ! هذا الكلب سيجمع التتار لاصطيادنا . واذا لم نستطع ان نقطع ميلين من هنا فاننا ضائعان !

وفكر في نفسه : لماذا اثقلت نفسي بهذا العبء ؟ اذن لسرت مسافة طويلة لو كنت وحدي !

وقال كوستيلين : اذهب وحدك ، فلماذا تموت بسببي ؟

فاجابه : كلا ، لن اذهب اذ لا يجوز ترك الرفيق .

ثم اخذ (كوستيلين) على كاهله مرة اخرى وصار يترنح به . وسار به على هذا النحو نصف ميل او اكثر . كانا ما يزالان في الغابة ولم يريا نهاية لها . ولكن الضباب اخذ يتشتت وبدت الغيوم تتجمع . ولم تعد النجوم ترى وقد اخذ الانهاك مأخذه من زيلين، ووصلا عين ماء محاطة باحجار من جانب الطريق . توقف زيلين وانزل كوستيلين .

وقال : دعني ارتاح قليلا واشرب ماء وناكل شيئا من الجبن ، لا استطيع السير ابعد من هذا .

ولكنه ما كاد ينبطح ليشرب جرعة ماء حتى سمع صوت حوافر فرس وراءه • فعادا راكضين بين الشجيرات واستلقيا تحت منحدر شديد •

سمعا اصوات تتر توقفوا في المكان الذي رجعا منه • وتحدث التتار قليلا • وبدأ كانهم اطلقوا كلبا ليشم الرائحة • وسمعا صوت تكسر اغصان وظهر كلب غريب من وراء الشجيرات • وتوقف واخذ ينبح • ثم نزل التتار وكانوا غرباء ايضا • والقوا القبض على زيلين وكوستيلين ، وربطوهما ووضعوهما على حصانين • ومضوا بهما •

وعندما ساروا نحو ميلين التقوا بمراد صاحبهما مع تترين يتبعانه • وبعد ان تحدث مع الغرباء وضع زيلين وكوستيلين على حصانين من خيله واعادهما الى القرية •

ولم يضحك (مراد) هذه المرة ولم يكلمهما بكلمة واحدة •

وصلوا القرية عند طلوع الصباح ، وانزلا في الشارع •

وتجمهر الاطفال حولهما وصاروا يرجمونهما بالحجارة ويصرخون ويضربونهما بالسياط •

واجتمع التتار في حلقة وكان الشيخ صاحب البستان معهم ايضا • بدأوا يتناقشون • سمعهم (زيلين) يبحثون ما يجب فعله به وبكوستيلين • قال بعضهم يجب نفيهما الى الجبال • وقال الشيخ: يجب قتلهما !

وناقشه (مراد) قائلا : دفعت مالا من اجلهما ويجب ان احصل على الفدية عنهما •

ولكن الشيخ قال : لن يدفعوا لك شيئا ، وليس وراءها سوى المصائب . من الاثم اطعام الروس . تخلص منهما .

وافترقوا . ولما انفض الجميع ، جاء مراد الى زيلين وقال : اذا لم يصل مال الفدية عنك في غضون اسبوعين ، سوف اجلدك . واذا حاولت الهرب ثانية سوف اقتلك كما اقتل الكلب ! اكتب رسالة ولتكن الكتابة مضبوطة !

وجلب لهما ورقا وكتب الرسالتين . وقيدت ارجلهما بالاصفاد واخذا الى حفرة عميقة سعتها اثنا عشر قدما مربعا ، القيا فيها .

(٦)

غدت الحياة عليهما عسيرة هذه المرة . ولم تخلع القيود من ارجلهما قط ، ولم يخرجا في الهواء الطلق . وكان يلقى اليهما عجين غير مخبوز كأنهما كلبان ، ويدلى الماء اليهما بصفيحة .

كانت الحفرة ضيقة ورطبة وشديدة العفونة . فمرض كوستيلين مرضا شديدا ، وتورم جسمه وتألم في كل مكان وكان يئن او ينام طوال الوقت . واكتأب زيلين ، ورأى مستقبلا مظلما بأنتظارهما ولم يستطع ان يفكر بطريقة للهرب .

وحاول ان يحفر نفقا ولكن اين يخفي التراب . ولاحظ سيده ذلك وهدد بقتله .

وكان ذات يوم جالسا على ارض الحفرة ، يفكر في حريته وشعر بغم عظيم ، وسقط في حجره بغتة رغيف خبز وآخر ، ثم وابل

من ثمار الكرز • فنظر الى الاعلى ورأى دينا • نظرت اليه وضحكت ومضت راكضة • وفكر زيلين : الا يمكن ان تساعدني دينا •
نظف مكانا صغيرا في الحفرة واخذ شيئا من الطين وراح يصنع دمى على هيئة رجال وخيول وكلاب • وقال في نفسه : عندما تأتي دينا سوف القيها اليها •

ولكن (دينا) لم تأت في اليوم التالي • وسمع زيلين وقع حوافر خيل • ومر بعض الرجال • وتجمع التتار يتشاورون • وتجادلوا وتصايحوا • وتكررت كلمة (الروس) مرات عديدة • واستطاع ان يميز صوت الشيخ العجوز ، ولكنه لم يفهم المعنى ، وظن ان قطعات من الجند الروس كانت قريبة وان التتار خائفين من دخولهم القرية ، لم يعرفوا ماذا يفعلون بالاسيرين •

ثم انفض جمعهم بعد ان تحدثوا مدة من الزمن • ثم سمع حفيفا فوق رأسه ، ورأى (دينا) جالسة على حافة الحفرة وقد انحنت فتدلت نقود ضفيرتها فوق الحفرة • والتمعت عيناها مثل نجمتين • واخرجت قطعتي جبن من كمها والقتهما اليه • تناولهما (زيلين) وقال : لماذا لم تأتي قبل هذا ؟ صنعت لك بعض الدمى • هذه هي خذيها !

وبدأ يرمي الدمى اليها واحدة بعد واحدة • ولكنها هزت رأسها ولم تنظر اليها ، بل قالت : لا اريد اي واحدة ثم جلست برهة ثم واصلت قولها: ايفان ، انهم يريدون قتلك ! •• وأشارت الى حنجرتها •

سألها : من يريد قتلي ؟

أجابت : ابي • انهم قالوا يجب عليه ان يفعل ذلك • انا حزينة عليك !

فقال زيلين : اذا كنت حزينة عليّ ، اجلبي لي عمودا طويلا •

فهزت رأسها كانها تقول له : لا استطيع !

شبك يديه وتوسل اليها : دينا ، ارجوك ! عزيزتي دينا ! اتوسل اليك !

فقالت : لا استطيع ! سيرونني احمله • انهم جميعا في البيت •

ثم مضت ، وعندما جاء المساء كان (زيلين) ما يزال جالسا ينظر الى الاعلى بين حين وحين ويتساءل ماذا سيحدث ؟ وظهرت النجوم ولكن القمر لم يطلع بعد • وعلا صوت المؤذن • ثم خيم السكون • وبدأ النعاس يداعب (زيلين) الذي كان يفكر : البنت تخاف ان تفعل ذلك •

وشعر بغتة بتراب يقع على راسه • فنظر الى الاعلى ورأى عمودا ينزل الى الجدار المقابل للحفرة حتى استقر فيها • فرح زيلين فرحا عظيما • وامسك به وثبته في الارض • كان العمود قويا وقد رآه من قبل على سطح كوخ مراد •

رفع نظره الى الاعلى فرأى النجوم مشرقة في السماء ، وكانت عينا (دينا) فوقه تلتمعان مثل عيني قطة في الظلام • انحنت بوجهها قريبا الى حافة الحفرة وهمست : « ايفان : ايفان » • وحركت يدها امام شفتيها لتبين له ان يتكلم بصوت خافت •

فقال زيلين : ماذا ؟

فقالت : لم يذهب الا اثنان

ثم قال زيلين : حسنا ياكوستيلين ، تعال ، دعنا نجرب آخر مرة • سأساعدك لتصعد •

ولكن كوستيلين لم يوافق •

قال : كلا ، لا استطيع ان اخرج من هنا • كيف استطيع ذلك وانا لا املك القوة على الحركة •

فقال زيلين : حسنا ، وداعا ، اذن ! لا تسيء الظن بي !

وقبل كل منهما الآخر • وامسك زيلين بالعمود وقال لدينا ان تقبض عليه وبدأ يتسلق • وانزلق مرة او مرتين • وقد أعاقته القيود • وساعده كوستيلين واستطاع ان يصل الى الحافة • وراحت دينا تسحب بيديها الصغيرتين قميصه بكل قوتها وهي تضحك •

وخرج (زيلين) وسحب العمود وقال : دينا ، ارجعيه الى مكانه والا سيلاحظونه ويضربونك •

وسحبت العمود الى البيت • ومضى (زيلين) ينزل التـل • وعندما هبط المنحدر الشديد ، تناول حجرا حادا وحاول ان يفـك قفل القيد ، ولكنه كان قويا ولم يستطع ان يكسره ، وكان مـن الصعب الوصول اليه • ثم سمع شخصا ينزل راكضا التل ويتواثب بخفة • وفكر : لا ريب انها دينا •

جاءت (دينا) وتناولت حجرا وقالت : « دعني احـاول • » جثت على ركبتها وحاولت ان تكسر القفل ولكن يديهـا كانتـا ضعيفتين مثل عودين صغيرين ، ولم تكن لديها القوة ، ثم رمـت الحجر وبدأت تبكي • ثم بدأ (زيلين) العمل مرة اخرى ليكسـر القفل وتربعت (دينا) قربه ويدها على كتفه •

تلفت زيلين حوله ورأى نورا احمر الى اليسار وراء التـــل ٠ كان القمر قد طلع ٠ ففكر ٠ وقبل ان يرتفع القمر ، يجب ان اجتاز الوادي ، واصل الغابة ٠

فنهض ورمى الحجر ٠ لابد ان يمضي سواء في القيـــود ام بدونهـــا ٠

وقال وداعا يا عزيزتي دينا ٠ انا لن انساك !

وامسكت به (دينا) وتحسسته بيديها لتجد مكانا لتضع بعض قطع الجبن التي جلبتها له ٠ فاخذها منها ٠

وقال : شكرا لك يا صغيرتي ٠ من يصنع لك الدمى عندمـــا أذهب ؟

ثم مسد رأسهـــا ٠

وانهمرت دموعها باكية واخفت وجهها بيديها ، ثم ركضـــت صاعدة التل مثل عنز صغير ٠ والنقود في ضفيرتها تخشخش على ظهرهـــا ٠

وابتهل (زيلين) الى ربه وامسك بسلسلة القيد بيده ليمنع صليلها ، وسار في الطريق وهو يجر خطواته جرا وينظر نحو المكان الذي كان القمر يوشك ان يطلع منه ٠ انه يعرف الطريق هذه المرة ٠ واذا سار بنحو مستقيم فعليه ان يمشي ستة اميال تقريبا ٠ ليتـــه يستطيع الوصول الى الغابة قبل طلوع القمر ! عبر النهر ٠ وصار الضوء وراء التل اكثر بياضا ٠ وظل ينظر اليه ويســـير في الوادي ولكنه لم ير القمر ٠ وصار الضوء اكثر تألقا ، وكان احـــد جانبي الوادي اكثر ضوء وصارت الظلال تطول نحو اسفل التل زاحفـــة

أقرب فأقرب الى زيلين الذي واصل سيره في الظل ، وكان يسرع ولكن القمر كان اسرع منه . وكانت قمم التلال التي على اليمين قد نورت . ولما اقترب من الغابة ، ظهر القمر الابيض من وراء التلال ، وانتشر الضوء كالنهار فيمكن رؤية الاوراق على الشجر . والقى الضوء على التل ولكن السكون كان شاملا كأن كل شيء فقد الحياة فلا يسمع صوت سوى خرير النهر في الاسفل .

وصل (زيلين) الغابة من دون ان يصادف احدا ، واختار بقعة مظلمة جلس فيها ليرتاح .

ارتاح واكل احدى قطع الجبن . ثم تناول حجرا وبدأ في كسر القيد . واصاب يديه ولكنه لم يستطع كسر القفل . ثم نهض وسار في الطريق وقطع نحو ميل فاصابه الاعياء وتألمت قدماه . فكان عليه ان يتوقف كل عشر خطوات : لا مفر من ذلك ــ قال في نفسه ــ يجب ان اجر نفسي ما دمت املك قوة . واذا جلست فلن استطيع ان انهض مرة اخرى . لن استطيع ان اصل الحصن ، ولكن عندما يطلع الصباح سانام في الغابة وامكث فيها طوال النهار ثم أواصل سيري في الليل .

وظل يمشي الليل كله . ومر به تتريان على حصانين ولكنه سمعهما من مسافة طويلة فاختبأ وراء شجرة .

واخذ القمر يصبح شاحبا والندى يتساقط . واقترب الفجر ولم يصل (زيلين) الى نهاية الغابة . وفكر : سأسير ثلاثين خطوة اخرى ثم ادخل الاشجار واجلس بينها .

سار ثلاثين خطوة اخرى فرأى نفسه في طرف الغابة • ذهب الى نهايتها • وكان الضوء شاملا والسهل ممتدا والحصن امامه • والى اليسار في اسفل المنحدر رأى نارا تخبو ودخانها ينتشر ، ورجالا مجتمعين حول النار •

نظر بامعان فرأى بنادق تلمع • انهم جنود ـــ قوزاق !

فرح زيلين • واستجمـــع بقايـــا قوته وانطلق نازلا التل وهو يقول في نفسه : لا سمح الله لاي تتري على فرس ان يراني الآن في الحقل المكشوف ! فلن استطيع الوصول الى الحصن على الرغم من قربي اليه •

ولم يكد يقول ذلك حتى راى ثلاثة تتار على رابية الى اليسار على بعد اربع مئة ذراع •

رأوه ايضا فاندفعوا نحوه • وغاص قلبه • وصار يلوح بيديه وينادي باعلى صوته : اخواني ، النجدة ، اخواني ! سمعه القوزاق• فمرقت جماعة منهم على صهوات الجياد تقطع الطريق على التتار • كان القوزاق بعيدين والتتار قريبين • ولكن (زيلين) ايضا بـــذل جهدا اخيرا • فرفع القيود بيده وصار يعدو نحو القوزاق لا يكاد يعرف ماذا يفعل ، ودعا ربه وهتف عاليا : اخواني ! اخوانـــي ! اخواني !

كان نحو خمسة عشر قوزاقيا • خلف التتار وتوقفوا قبل الوصول اليه • وترنح زيلين نحو القوزاق الذين احاطوا به وبدأوا يسألونه : من انت ؟ وما انت ؟ ومن اين انت ؟ ولكن زيلين خـــرج عن طوره ولم يكن في وسعه الا البكاء وترديد : اخواني ! اخواني !

وجاء الجنود يركضون وتجمهروا حول زيلين ــ وقد اعطاه احدهم خبزا ، واخر دقيق حنطة ، وثالث شرابا : دثـره احدهـم بمعطف وكسر اخر قيوده •

وعرفه الضباط ، واركبوه معهم الى الحصن • وفرح الجنود بعودته ، واحاط به رفاقه جميعـا •

وقص عليهم زيلين ما حدث له قائلا : هكـذا كنت اريـد العودة الى البيت والزواج • ولكن يبدو ان القدر وقف ضد ذلك •

واستمر (زيلين) في الخدمة في القفقاس • ومر شهر قبل ان يطلق سراح كوستيلين بعد دفع فدية من خمسة آلاف روبل • وقد اشرف على الموت عندما اعادوه •

سنة ١٨٧٠ م

صيد الدببة



(وقعت احداث هذه المغامرة لتولستوي نفسه في عام ١٨٥٨ ولكنه ترك الصيد بعد عشرين سنة لاسباب انسانية) •

خرجنا في حملة لصيد الدببة • اطلق رفيقي النار على دب فلم يصبه الا بجروح في لحمه • وهرب الدب تاركا آثار دم على الثلج •

اجتمعنا كلنا في الغابة لنقرر : هل نقتفي اثر الدب فورا ام نتركه يومين او ثلاثة ايام حتى يستقر ؟ وسألنا الفلاحين الباحثين عن الدببة الطريدة ان كان من الممكن تطويق الدب في ذلك اليوم •

فقال فلاح عجوز للباحثين عن الطرائد : لا ، ذلك مستحيل ، يجب ان تدعوا الدب يهدأ • فيمكنكم تطويقه بعد خمسة ايام ، ولكن اذا تتبعتموه الآن ، فانكم ستخيفونه ويهرب ولن يستقر •

ولكن باحثا شابا عن الطرائد صار يجادل العجوز قائلا ان من الممكن تطويق الدب الآن • ففي مثل هذا الثلج لن يبتعد كثيرا لانه دب سمين • وسوف يستقر قبل المساء وان لم يستقر فانني استطيع اللحاق به بأحذية التزحلق على الثلج •

وكان رفيقي في الصيد ضد فكرة متابعته وينصح بالانتظار • ولكنني قلت : لا حاجة بنا للجدال • افعل انت ما يحلو لك ، ولكنني سأقتفي اثره مع (دميان) فاذا ما طوقنا الدب ، فذلك خير ، واذا ما فشلنا فاننا لن نخسر شيئا • ما زال الوقت مبكرا وليس لدينا اليوم ما نقوم به •

وهكذا تم الاتفاق •

وعاد الاخرون بالزلاقات قافلين الى القرية • واخذت أنا ودميان شيئا من الخبز وتخلفنا في الغابة •

وعندما غادرنا الجميع فحصنا انا ودميان بنادقنا وادخلنا اذيال معاطفنا الدافئة في احزمتنا ، ثم انطلقنا نقتفي آثار الدب •

وكان الجو لطيفا ، هادئا على الرغم من الصقيع • ولكن من الصعب السير بأحذية الثلج • كان الثلج عميقا ولينا ، ولم يتصلب قط في الغابة وقد تساقط ثلج جديد في اليوم السابق ، فصارت احذيتنا تغوص ست عقدات في الثلج او اكثر من ذلك •

وكنا نرى آثار الدب من مسافة ونعرف كيف كان يسير • كان يغوص احيانا الى بطنه ويتقدم بجهد في الثلج • كنا في اول الامر نرى آثاره ونحن تحت اشجار ضخمة ، ولكن عندما خرجنا الى اجمة من شجيرات التنوب ، توقف دميان •

وقال : يجب ان نترك الطريق الآن • فلعله استقر في مكان ما قريب من هنا • يمكن ان ترى ذلك من الثلج الذي جلس عليه • دعنا نترك الدب وندور حوله ، ولكن يجب ان نسير بهدوء • لا ترفع صوتك ولا تسعل والا ستجعله يهرب •

فتركنا الطريق واستدرنا الى اليسار ، بعد ان قطعنا نحو خمس مئة ذراع ، رأينا آثار الدب مرة اخرى امامنا الى اليمين • وتبعناها وقادنا الى الطريق حيث توقفنا نفحص الطريق لنرى اي اتجاه سلك الدب • كانت هنا وهناك آثار أقدام الدب ومخالبه وكل شيء ، وهنا وهناك آثار احذية فلاح وهي من اللحاء • وبدا واضحا ان الدب اتجه صوب القرية •

وعندما سرنا في الطريق قال دميان : لا فائدة من مراقبة الطريق الآن • يجب ان نرى الى اين اتجه ، يمينا ام شمالا ، من

الاثار في الثلج الرخو ، لابد انه استدار الى جهة ما لانه لم يذهب الى القريــة .

ومشينا نحو ميل في الطريق ثم رأينا امامنا اثر الدب يخرج عن الطريق . وفحصنا الاثر . فما اعجبه ! كان اثر دب حقا ، ولكنه لم يذهب من الطريق الى الغابة ، بل من الغابة الى الطريق ! وكانــت الاصابع تشير نحو الطريق .

فقلت : لابد انهذا دب آخر .

فنظر (دميان) اليه وتأمل برهة . وقال : كلا ، انه الدب نفسه انه يحتال علينا . فقد سار الى الخلف عندما ترك الطريق .

تتبعنا الاثر ووجدنا ان الامر حقا كذلك ! فقد سار الدب عشر خطوات الى الوراء ثم وصل شجرة تنوب ومن ورائنا استــدار ، ومشى نحو الامام .

توقف دميان وقال : اننا سنحيط به هنا بكل تأكيد . يوجــد مستنقع امامنا ولابد انه استقر فيه . دعنا ندر حوله .

وبدأنا ندور حوله مخترقين اجمة من اشجار التنوب . فتعبت تعبا شديدا ، وصار من الصعب عليّ ان اقدم ، وانزلقــت الــى شجيرات عرعر ، فعلــق حــذاء التزحلق بهــا ، ثم ظهــرت شجيرة تنوب صغيرة بين قدمي ومن قلة الممارسة خلع حذائي ، او كنــت افاجأ بأرومة شجرة مقطوعة او قطعة خشب مخبوءة في الثلــج . وصار التعب يزداد وتبللت من العرق ، فخلعت معطفي الفرائي . اما (دميان) فقد كان ينزلق كأنه في زورق ، وكأن أحذيته تتحرك طوعا ، لا تعلق بأ ي شيء ولا تنخلع . واخذ معطفي الفرائي والقاه على كتفه وظل يحثني على التقدم .

سرنا مسافة ميلين وخرجنا على الطرف الاخر من المستنقع • وكنت متلكئا وراءه ، وكثيرا ما انخلع حذائي ، وتعثرت قدماي • وتوقف (دميان) الذي كان امامي ولوح بذراعه • وعندما وصلت اليه انحنى مشيرا بيده وهمس : اترى العقعق فوق تلك الشجـرة منزوا ؟ انه يشم الدب من بعيد • لابد انه هنا •

استدرنا ثم انطلقنا اكثر من مسافة نصف ميل فوصلنا الـى الطريق القديم مرة اخرى • لقد درنا حول الدب الذي كان علـى الطريق الذي تركناه الآن • توقفنا وخلعت قبعتي وارخيت جميـع ملابسي • شعرت بالحرارة كأنني في حمام بخاري ، وكنت مبلـلا مثل جرذ غارق في الماء • وكان (دميان) يسيل عرقا ايضا ، فمسح وجهه بكمـه •

وقال : حسن يا سيدي لقد قمنا بعملنا وعلينا ان نرتـاح الان•

وظهر وهج الاصيل احمر من خلال الغابة • خلعنا احذيـة التزحلق وجلسنا عليها ، واخرجنا شيئا من الخبز والملح من حقائبنا• اكلت شيئا من الثلج اولا ثم شيئا من الخبز • وكان طعم الخبز ممتازا جدا حتى ظننت انني لم اتناول في حياتي اي شيء مثله قبل هذا • جلسنا نرتاح هناك حتى بدأت ظلمة الغسق تشتد • ثم سألت دميان: هل المكان بعيد عن القرية •

فقال : نعم • لابد ان المسافة تقارب ثمانية اميال • سنواصل سيرنا ليلا • ولكن يجب ان نرتاح الآن • البس معطفـك الفرائـي يا سيدي والا اصبت بالبرد •

عدد (دميان) الثلج وكسر بعض اغصان التنوب وجعل منها فراشا • استلقينا جنبا الى جنب ، وقد ارحنا رأسينا على ذراعينا •

ولا أتذكر كيف نمت • استيقظت بعد ساعتين وقد سمعت شيئا يطقطق •

نمت نوما عميقا بحيث لم اعرف اين كنت • فنظرت حولي • ما اروعه ! كنت في ما يشبه البهو ، كل شيء يتلألأ ، واعمدة بيض تتألق ، وعندما نظرت الى الاعلى رايت من خلال زخرفة رقيقة مشجرة قبة سوداء كالغراب مرصعة بانوار ملونة • وبعد ان نظرت مليا ، تذكرت اننا كنا في الغابة وان ما ظننته بهوا واعمدة كان اشجارا غطاها الثلج والصقيع ، وان الانوار الملونة نجوم تتلألأ بين الغصون •

نزل الصقيع ليلا وتكاثف على الاغصان ، وغطى دميان ، ومعطفي الفرائي ، وصار يتقاطر من الاشجار ، ايقظت دميان ، ولبسنا احذية التزحلق وبدأنا مسيرنا • كان الهدوء شاملا في الغابة لا تسمع الا صوت احذيتنا تدفع خلال الثلج الهش • وكانت الغابة تضج بين حين وحين بصوت شجرة تقرقع متكسرة من الصقيع • ولم نسمع صوت مخلوق حي الا مرة واحدة • فقد خشخش شيء قريب منا ثم هرب • ايقنت انه الدب ، ولكن عندما ذهبنا الى تلك البقعة التي اتى منها الصوت ، وجدنا آثار اقدام ارانب برية ، ورأينا عدة اشجار حور فتية قضم لحاؤها ، كنا قد اجفلنا بعض الارانب التي كانت تأكل •

خرجنا الى الدرب وسرنا فيه ونحن نجر احذية التزحلق وراءنا فقد كان السير سهلا ها هنا • وكانت احذية التزحلق تقرقع وهي تنساب خلفنا من جانب الطريق الصلب من المشي الى جانب آخر • وكان للثلج صرير تحت احذيتنا واستقر الصقيع البارد على وجهينا

مثل كثيب • وبدت النجوم من الغصون كأنها تجري للقائنا ، تتلألأ تارة وتختفي تارة اخرى كأن السماء كلها في حركة مستديمة •

وجدت رفيقي نائما فايقظته وسردت عليه كيف درنا حول الدب • وبعد ان طلبنا من مضيفنا الفلاح ان يجمع مثيرين للطرائد من مكامنها في الصباح ، تناولنا عشاءنا واستلقينا لننام •

كنت متعبا جدا بحيث كان من الممكن ان ننام حتى الظهر لو لم يوقظني رفيقي ، وثبت ورأيت انه قد اتم لبسه وكان منشغلا ببندقيته •

فسألته : اين دميان ؟

فقال : في الغابة منذ مدة طويلة • مشي مقتفيا الآثار التي صنعتماهما ثم عاد الى هنا ، وقد ذهب الان ليطمئن من امر مثيري الطرائد •

غسلت وجهي وارتديت ملابسي ثم حشوت بندقيتي ، وركبنا زلاقة انطلقنا بها •

كان الصقيع القارص مستمرا والهدوء شاملا والشمس لا يمكن ان ترى • وقد لفنا ضباب كثيف ، وما يزال كل شيء مغطى بالصقيع •

وبعد ان سرنا بالزلاقة نحو ميلين في الطريق واقتربنا من الغابة رأينا سحابة من دخان ترتفع من غور ، ثم وصلنا مجموعة من الفلاحين رجالا ونساء ، يحملون الهراوات •

نزلنا وتوجهنا نحوهم ، جلس الرجال يشوون بطاطا ويضحكون ويتحدثون الى النساء •

كان دميان معهم ، وعندما وصلنا ، نهضوا وقادهم دميان ليضعهم في الحلقة التي رسمناها امس • ساروا في صف واحـد ، رجـالا ونساء ، وكانوا ثلاثين شخصا في مجملهم • وكان الثلج عميقا فلـم نستطع ان نراهم الا من الخصر فما فوق • واستداروا الى الغابـة وتبعنا رتلهم أنا وصديقي وعلى الرغم من انهم شقوا طريقا لهم ، فقد كان المشي عسيرا ، ولكن الوقوع غير ممكن لأنهم كانوا كمن يسير بين جدران من الثلج •

سرنا على هذا النحو نحو نصف ميل ، فرأينا (دميان) بغتة يأتي من جهة اخرى ـ يركض نحونا بأحذية التزحلق ويشير الينـا ان نلتحق به • ذهبنا نحوه ، وبين لنا اين نقف : احتللت موقعـي وتلفت حولي •

كانت الى شمالي اشجار تنوب عالية استطيـع ان ارى بـين جذوعها ، الى مسافة بعيدة ، بقعة سوداء وراء الشجر احد مثيري الطرائد • وامامي اجمة من اشجار التنوب الفتية بارتفاع الانسان تقريبا ، وقد اثقلها الثلج فانحنت فالتصقت • وامتدت خلال هـذه الغيضة الصغيرة الاشجار ممر مغطى بالثلج الكثيف ويؤدي الـى حيث كنت واقفا • وامتدت الاجمة الى يميني وانتهت الى ارض فضاء ، حيث استطعت ان ارى (دميان) يضع صديقي في مكانه •

وفحصت بندقيتي ، وتأملت أي مكان افضل للوقوف • كانت خلفي شجرة تنوب باسقة على بعد ثلاث خطوات • وقلت في نفسي : « هناك سأقف ، حيث يمكن ان اسند بندقيتي الثانية الى الشجرة » وتحركت نحو الشجرة ، وانا اغوص حتى ركبتي عند كل خطوة •

وسويت فسحة مساحتها ذراع مربع بوطئها لاقف فيهـا •
اخذت بندقية بيدي ، وحضرت الثانية مسندة الـى الشجـرة •
واستللت خنجري واعدته الى غمده لاتأكد انني استطيع سحبه بيسر عند الحاجـة •

وما ان انهيت هذه الترتيبات حتى سمعت (دميان) ينادي في الغابة : ها هو ! ها هو !

ومان هتف دميان ، حتى اجابه الفلاحون في الحلقة المحيطـة جميعا باصواتهم المختلفة •

صاح الرجال : هو ، هو ، هو ! او ! او ! او !

وصرخت النساء بنغمة حادة : اي ! اي ! اي !

كان الدب داخل الحلقة ، وظل الجميع يهتفون ودميان يطارده• ووقفنا انا وصديقي وحدنا صامتين بلا حراك ،ننتظر ان يتقدم الدب نحونا • وعندما وقفت احدق مصغيا ، كان قلبي يـدق بعنـف • ارتجفت وانا امسك ببندقيتي بقوة •

وفكرت : سيأتي الان ، بغتة • ساصوب واطلق النار عليـه وسيقع ــ •

وسمعت فجأة الى يساري ولكن على مبعدة مني شيئا يقع على الثلج • نظرت بين اشجار التنوب الطويلة ، فرأيت علـى مسافـة خمسين خطوة تقريبا ، وراء الجذوع ، شيئا كبيرا واسود • صوبت وانتظرت مفكرا : الن يقترب اكثر ؟

وحين انتظرت رايته يحرك اذنيه ، ويستدير ثم يعود • رأيت جانبه كله • كان وحشا هائلا • وفي فورة انفعالي اطلقـت النار

وسمعت طلقتي ترتطم بشجرة . نظرت خلال الدخان ، فرأيت الدب يولي الادبار الى داخل الدائرة ، ويختفي بين الاشجار .

وفكرت : ها هي فرصتي تضيع . ولن يعود الي . فاما ان يصيبه رفيقي واما ان يهرب خلال خط مثيري الطرائد .

ولن يعطيني ، على اية حال ، فرصة اخرى .

على انني حشوت بندقيتي مرة اخرى وعدت اقف مصغيا . وكان الفلاحون يهتفون جميعا حوله ، ولكن الى اليمين ، غير بعيد من مكان رفيقي ، سمعت امرأة تصرخ بصوت مسعور : ها هو ذا ! ها هو ذا ! تعال هنا ، تعال هنا !او! او ! اي ! أي !

من الواضح انها استطاعت ان ترى الدب . وقد يئست من توقع مجيئه ، فرحت انظر الى اليمين نحو رفيقي . وفجأة رايت (دميان) ، وبيده هراوة ، ومن دون احذية التزحلق ، يركض في الدرب نحو صديقي . وربض بجانبه ، مشيرا بعصاه كأنه يصوب الى شيء ، ثم رايت صديقي يرفع بندقيته ويصوب في الاتجاه نفسه . طاق .. اطلق النار !

ولكنني رأيت ان رفيقي لم يركض نحو الدب . من الواضح انه اخطأه او ان الطلقة لم تؤثر فيه كثيرا .

فكرت : ان الدب سيهرب . سيعود ، ولن يرجع مرة اخرى نحوي . ولكن ما هذا ؟

جاء شيء منطلقا نحوي كالزوبعة ، ويطلق شخيرا ، ورأيت الثلج يتطاير قريبا مني . لمحت الدب امامي مندفعا في الممر ، خلال الاجمة ، نحوي مباشرة ، وقد خرج عن طوره رعبا . ولم يكد

يصل مسافة ست خطوات عني حتى رأيته باكمله ــ صدره الأسود
رأسه وينثر الثلج حوله وهو يتقدم . رأيت من عينيه انه لم يرني ،
مباشرة وينثر الثلج حوله وهو يتقدم . رأيت من عينيه انه لم يرني ،
ولكن جنون الرعب جعله يندفع عشوائيا فقاده طريقه نحو الشجرة
التي كنت اقف تحتها . رفعت بندقيتي . واطلقت وقد اوشك ان
يكون فوقي ولكني اكتشفت انني اخطأت . لقد مرت طلقتي من
جانبه وانه لم يسمعني اطلق النار ، لذلك ظل يندفع طائشا نحوي .
خفضت بندقيتي واطلقت ثانية وكدت امس راسه ، طاق . اصبته
ولكني لم اقتله !

رفع راسه ، والقى اذنيه الى الوراء ، وجاء نحوي مكشرا عن
انيابـــه .

خطفت بندقيتي الاخرى ، ولكن قبل ان المسها ، انقض عليّ
والقاني على الثلج ، ومر من فوقي تماما .

وحاولت ان انهض ولكن شيئا ضغط علـــيّ ومنعنـــي من
النهوض . لقد مر من فوقي في اثناء اندفاعه ولكنه رجع ووقع عليّ
بكل ثقل بدنه . وشعرت بشيء ثقيل يدفعني الى الاسفل . وشيء
دافيء فوق وجهي ، وادركت انه كان يسحب وجهي الى داخل فمه .
وصار انفي الآن في داخله وشعرت بحرارته . وشممت دمه . وكان
يضغط على كتفي الى الاسفل بيديه لئلا استطيع الحركة .

وكل ما استطعت عمله هو ان اسحب راسي نحو صدري بعيدا
عن فمه ، محاولا ان احرر انفي وعيني ، في حين كان يحـــاول ان
ينشب اسنانه فيهما . ثم شعرت انه امسك بجبيني تحت الشعـــر

مباشرة بأسنان فكه الاعلى وكان يطبق اسنانه حتى كأن وجهي تمزقه السكاكين . حاولت جاهدا ان اتخلص ، بينما اسرع في اطباق فكيه مثل كلب ينهش . استطعت ان الوي وجهي بعيدا ، ولكنه اخذ يسحبه مرة اخرى في داخل فمه .

ففكرت : لقد دنا أجلي !

ثم شعرت بالثقل يرفع ، ونظرت الى الاعلى ورأيت انه لم يعد موجودا . فقد وثب عني وولى هاربا .

عندما رأى دميان ورفيقي الدب يطرحني ارضا واخذ ينهشني، اندفعا لانقاذي . فاسرع رفيقي يتخبط وبدلا من ان يتخذ الدرب المطروق ركض في الثلج العميق فوقع ، وبينما كان يحاول جاهدا الخروج من الثلج كان الدب ينهشني . اما (دميان) فقد رآني وانطلق في الطريق من دون بندقية وليس بيده سوى العصا وهو يصيح :

— انه يأكل سيدي ! انه يأكل سيدي !

وصار يصيح بالدب وهو يركض أ ايها الابله ! ماذا تفعل ؟ اتركه ! اتركه !

فاطاعه الدب وتركني وولى هاربا . وعندما نهضت كانت دماء غزيرة على الثلج كأن خروفا قد ذبح ، وتهدل اللحم ممزقا على عيني ، مع انني لم اشعر بالالم في فورة انفعالي .

ووصل رفيقي الآن وتجمع الناس الاخرون حولي ونظروا الى جرحي ووضعوا ثلجا عليه . ولكنني نسيت جروحي فسألت : اين الدب ؟ بأي طريق هرب .

وفجأة سمعت : ها هو ذا ! ها • هو ذا !

ورأينا الدب ثانية يركض نحونا ، فتناولنا بنادقنا ، ولكـن قبل ان يجد اي واحد منا الوقت لاطلاق النار ، مر بنا مسرعا • لقد غدا ضاريا واراد ان يمزقني مرة اخرى ، ولكنه لما رأى كثرة الناس ولى مذعورا • ورأينا رأسه كان ينزف ، واردنا ان نتبعه ، ولكن لمـا زادت آلام جروحي ، ذهبنا بدلا من ذلك للبحث عن طبيب •

خيط الطبيب جروحي بخيوط من حرير ، وسرعان ما اخذت أتماثل للشفاء •

خرجنا بعد شهر لنصيد ذلك الدب مرة اخرى ، ولكن لـم تواتني الفرصة للقضاء عليه ، فلم يخرج من الدائرة بل ظل يدور حولها ويدور وهو يجأر بصوت رهيب •

قتله (دميان) • وقد كسر فك الدب الاسفل • وقلع احـد اسنانـه بطلقـة •

كان مخلوقا هائلا وله فراء اسود رائع • حنطته وهـو الآن راقد في حجرتي • وقد شفيت جروح جبهتي بحيث لم تعد الآثار ترى الا بصعوبة •

(١٨٧٢)

بأي شيء يعيش الانســان ؟



(١)

كان اسكافي اسمه (سيمون) لا يملك بيتا ولا ارضا ، يعيش مع زوجته واطفاله في كوخ ، ويكسب عيشه من عمله . كان العمل رخيصا والخبز غاليا ، وينفق ما يكسبه على الطعام . ولم يكن الرجل وزوجته يملكان سوى معطف واحد من جلد الغنم يشتركان في لبسه شتاء ، حتى بلي وغدا اسمالا ، وهذه هي السنة الثانية التي أزمع فيها ان يشتري جلود اغنام من اجل معطف جديد . وفرّ (سيمون) قبل حلول الشتاء قليلا من المال ، ورقة نقدية من فئة ثلاثة روبلات اخذتها زوجته في صندوقها ، وخمسة روبلات وعشرين كوبيكا يدين له بها زبائنه في القريــة .

فتأهب ذات يوم للذهاب الى القرية لشراء جلود اغنام . ولبس فوق قميصه سترة زوجته وهي من نباد النانكين ، ولبس فوق ذلك سترته الخاصة . ووضع ورقة النقود في جيبه ، واقتطع لنفسه عصا يتوكأ عليها ، وخرج بعد الامطار . وفكر في نفسه : سأجمع الروبلات الخمسة التي استحقها واضيفها الى الثلاثة التي عنـدي وسيكون ذلك كافيا لشراء جلود أغنام من اجل معطف الشتاء .

وصل القرية ومر على كوخ فلاح له عليه بعض المال ولكن الرجل لم يكن موجودا في البيت • ووعدته زوجة الفلاح ان يدفع المال في الاسبوع القادم ، ولكنها لا تستطيع ان تدفعها هي نفسها• ثم عرج سيمون على فلاح آخر ولكن الفلاح اقسم له انه لا يملك مالا ولن يدفع له الاعشرين كوبيكا يدين بها اليه عن تصليح حذاء ثم حاول سيمون شراء الجلود بالدين ولكن البائع لم يثق به • وقال له : هات نقودك ،عند ذلك يمكنك الانتقاء من الجلود • فنحن نعرف ماذا يعني استحصال الديون •

فكان كل ما فعله الاسكافي الحصول على العشرين كوبيكا عن تصليح الحذاء ، واخذ حذاء من لباد من فلاح اخر لوضع نعال من جلد له •

شعر سيمون بالحزن • فصرف العشرين كوبيكا على المشروب، وتوجه الى البيت من دون ان يشتري اي جلد • شعر في الصباح ببرودة الصقيع ، ولكنه الان ، بعد ان شرب ، شعر بالدفء من دون معطف فراء الغنم • وصار يمشي مجهدا وهو يضرب الارض المتجمدة بعصاه ويؤرجح حذاء اللباد بيده الاخرى ويكلم نفسه قائلا : انني اشعر بالدفء على الرغم من انني لا املك معطفا من فراء الغنم • وقد شربت شيئا جرى في عروقي كلها • وليست بي حاجة الى جلد الغنم • سأسير غير عابيء بأي شيء • هذا انا بين الرجال ! فماذا يهمني ؟ اني استطيع ان اعيش دونما جلود اغنام • ليست بي حاجة اليها يقينا ان زوجتي سوف تغتاظ ، ومن الخزي حقا ، ان يعمل المرء طوال نهاره ولا ينال اجره • توقف لحظة ! اذا لا تجلب ذلك المال فاني سأسلخ جلدك ، وسأكون سعيدا ان لم لم افعل •

وكيف ذلك ؟ يدفع عشرين كوبيكا ! فماذا استطيع ان افعل بالعشرين كوبيكا ؟ اشربها ـ هذا كل ما يسع الانسان فعله ! يقول انه في عوز شديد ! قد يكون امره كذلك ، ولكن ما شأني انـا ؟ عندك بيت وماشية وكل شيء : وليس لدي الا ما انا فيه ! لديك حبوب من زرعك ، اما انا فيجب عليّ شراء كل حبة . فماذا افعل ؟ يجب ان اصرف ثلاثة روبلات كل اسبوع على الخبز وحده . واعود الى البيت واجد الخبز قد نفد . وعليّ ان ادفع روبلا آخر ونصف الروبل . فادفع ما انت مدين به ، وكفى هراء !

وكان قد وصل في ذلك الوقت قريبا من مقام مقدس عنـد منعطف الطريق ـ فنظر اليه ورأى شيئا ابيض وراء المقام .

وكان ضوء النهار باهتا ، فحدق الاسكاف في الشيء من دون ان يكون قادرا على معرفة ما هو . « لم يكن هنا حجر ابيض قبل هذا . فهل يمكن ان يكون ثورا ؟ انه لا يشبه الثور . فهو له رأس انسان ، ولكنه شديد البياض . وماذا يمكن لانسان ان يفعل هنا ؟ »

تقدم اقرب فاصبح الشيء اوضح رؤية . ولشـدة دهشته ، وجد انه انسان حقا ، هل هو حي أم ميت ، يجلس عاريا ، مستندا بلا حراك الى المقام . واشتد الفزع بالاسكاف ، وراح يفكـر : « قتله بعض الناس ، وجرده من ملابسه ، وتركه هنا . واذا تدخلت في ما لا يعنيني ، فانني سأقع في مأزق . »

ولهذا واصل الاسكافي سيره . مر من امام المقام فلم يستطع ان يرى الرجل . وعندما مشى مسافة التفت الى الوراء ورأى ان الرجل لم يعد مستندا الى المقام ، بل كان يتحرك كأنه ينظر اليه . فأزداد

الاسكافي رعبا وراح يفكر : هل اعود اليه ام اواصل سيري ؟ قد يحدث شيء رهيب اذا اقتربت منه • ومن يدري من هو هـذا الشخص ؟ انه لم يأت الى هنا من اجل عمل الخير ، اذا اقتربت منه ، قد يقفز ويخنقني ولن استطيع الخلاص • وان لم يفعل فانه سيكون عبئا ثقيلا • فماذا بوسعي أن افعل لانسان عار ؟ لن استطيع ان
عبئا ثقيلا • فماذا بوسعي ان افعل لانسان عار ؟ لن استطيع ان

اسرع الاسكافي في طريقه تاركا المقام المقدس خلفه ـ ولكن ضميره راح يؤنبه فتوقف في الطريق •

وقال لنفسه : ماذا تفعل يا سيمون ؟ لعل الرجل يموت من الحاجة ، وتتركه خائفا • أأنت غني جدا فتخاف اللصوص ؟ عار عليك يا سيمون !

فرجع وذهب الى الرجل •

(٢)

اقترب (سيمون) من الغريب ونظر اليه ورأى انه شاب ، سليم البدن ، لا كدمات عليه ، ولكنه متجمد من البرد وخائف وقد جلس هناك مستندا الى الخلف من دون ان ينظر الى سيمون اذ لا يستطيع ان يرفع اليه عينيه من شدة الضعف • اقترب (سيمون) منه وبدا كأنه يستيقظ • أدار رأسه وفتح عينيه ونظر الى وجه سيمون • كانت تلك النظرة كافية ان تجعل سيمون يحب الرجل • والقى حذاء اللباد على الارض وفك حزامه ووضعه على الحذاء وخلع معطفه •

وقال : ليس هذا وقت الكلام • هيا البس هذا المعطف فورا !

وامسك سيمون بالرجل من مرفقيه وأعانه على النهوض •

وعندما وقف ، رأى سيمون ان جسمه نظيف وبحالة جيدة ، وان يديه وقدميه حسنة الشكل ، ووجهه وسيم ودود •

القى معطفه على كتفي الرجل الذي لم يستطع ان يجد الردنين ، فدس سيمون ذراعي الرجل فيهما ، ولفه جيدا بالمعطف وربط الحزام حول خصر الرجل •

ثم خلع قبعته الممزقة ووضعها على رأس الرجل ولكن رأسه شعر بالبرد وفكر : اني اصلع ، وهو عنده شعر كثيف •

لذلك اعاد القبعة الى رأسه ثم فكر مرة اخرى : الافضل ان اعطيه شيئا يلبسه في قدميه •

واجلس الرجل وساعده في لبس حذاء اللباد قائلا له : هيا يا صديقي تحرك ودفيء نفسك • ويمكن حل المشكلات الاخرى فيما بعد • اتستطيع المشي ؟

نهض الرجل ونظر بود الى سيمون ولكنه لم يستطع ان يتفوه بكلمة •

فقال سيمون : لماذا لا تتكلم ؟ الجو بارد جدا فلا يمكننا البقاء هنا • يجب ان نذهب الى البيت • هاك العصا توكأ عليها ان كنت تشعر بالضعف • والآن ، تقدم !

بدأ الرجل يمشي وتحرك بيسر ولم يتلكأ وراء صاحبه فسأله سيمون وهما سائران : من اين انت ؟

فقال الرجل : لست من هذه الناحية •

فعلق سيمون : ظننت ذلك ايضا . فانني اعرف أهل هـذه المنطقـة .

ولكن كيف وصلت الى المقام المقدس ؟

فأجاب لا استطيع الافصاح عن ذلك

فسأله سيمون : هل أساء احد معاملتك ؟

فقال : لم يسىء احد معاملتي ، ولكن الله عاقبني .

فعقب سيمون عليه : الله يحكم الجميـع طبعا . وعليك ان تجد طعاما ومأوى في مكان ما . الى اين تريد الذهاب ؟

فاجاب : لا فرق عندي في ذلك .

ذهل سيمون . ولم يكن الرجل يبدو مشردا ، وكان يتكلـم بلطف ومع ذلك لم يقدم بيانا عن نفسه . فظل سيمون يفكـر : « وماذا حدث له ؟ » وقال للغريب : حسنا اذن ، تعال معي الـى البيت لتشعر بالدفء بعض الوقت في الاقل .

واتجه سيمون الى بيته ، وسار الغريب الى جانبه . وهبـت الريح وشعر سيمون بالبرد . وسيطر الآن على ترنحه وبدأ يشعر بالصقيع . وصار ينشق ويلف معطف زوجته حوله ، وفكر في نفسه: « والآن تحدث عن فراء الغنم ! خرجت من اجل فراء الغنم وعدت الى البيت من دون معطف على ظهري ، وانكى من ذلك اني اجلب معي رجلا عاريا . ولن يسر ذلك ما ترينا ! » وعندما فكر بزوجتـه أصابه الحزن ، ولكنه عندما نظر الى الغريب وتذكر كيف نظر اليه عند المقام المقدس ، ابتهج فؤاده .

(٣)

اعدت زوجة سيمون كل شيء مبكرا في صباح ذلك اليوم • فقطعت الخشب ، وجلبت الماء ، واطعمت الاطفال، وتناولت افطارها، وجلست الآن تفكر • وتساءلت : متى ينبغي لها ان تخبز ، الان ام غدا ؟ فقد بقيت لديها قطعة خبز كبيرة •

وفكرت : اذا كان (سيمون) قد تناول غداءه في المدينة ، ولن يأكل كثيرا عند العشاء ، فان الخبز سيبقى يوما آخر •

وصارت تزن قطعة الخبز بيدها مرارا وتفكر : لن اخبز اليوم شيئا • ولم يبق لدينا من الطحين الا ما يكفي خبزة واحدة • ونستطيع ان نؤجل ذلك الى يوم الجمعة •

فأعادت (ماترينا) الخبز ، وجلست الى المنضدة لترقع قميص زوجها • وراحت تفكر في اثناء عملها كيف ان زوجها سيشتري جلودا لاجل معطف الشتاء • وفكرت في نفسها :

« لو ان البائع لن يخدعه • وزوجي الطيب رجل بسيط جدا ، لا يغش احدا ، ولكن اي طفل يستطيع ان يحتال عليه • ثمانية روبلات مبلغ كبير — يمكن ان يشتري به معطفا جيدا ، ان لم يكن من الجلد المدبوغ ،فمعطف شتائي مناسب • ما أقسى ما انقضى الشتاء الماضي من دون معطف دافيء •فلم استطع ان انزل الى النهر ولا اخرج الى اي مكان • عندما كان يخرج كان يلبس كل ما عندنا ، ولا يبقى لي شيئا • لم يخرج اليوم مبكرا ، ولكن ما يزال الوقت محتملا لعودته • ارجو الا يكون قد اسرف في الشرب ! » •

ولم تكد (ماترينا) تفكر بهذا حتى سمعت وقع اقدام على عتبة البيت ودخول شخص • غرزت (ماترينا) ابرتها في الثوب وخرجت الى المجاز ، فرأت هناك رجلين : سيمون ومعه رجل بلا قبعة ويلبس حذاء من اللباد •

شمت ماترينا من فورها رائحة المشروب الروحي في زوجها • وفكرت « ها هو الآن قد شرب • » • ولما رأت انه عاد بلا معطف، وليس عليه الا سترتها ، ولم يجلب رزمة جلود ، وقفت صامتة ، وعليها امارات الخجل ، وقلبها يكاد ينفطر من اليأس • « لقد شرب بالمال • واسرف فيه مع شخص تافه جلبه معه الى البيت • »

دعتهما (ماترينا) يدخلان الكوخ ، وتبعتهما • ورأت ان الغريب شاب نحيل ، يلبس معطف زوجها ، ولا يرى قميص تحته ، ولا يعتمر قبعة • وبعد ان دخل وقف لا يتحرك ولا يرفع نظره ، ففكرت ماترينا : لابد انه رجل سيء ــ انه خائف •

وعبست (ماترينا) ووقفت الى جانب التنور تنتظر ماذا يفعلان •

خلع (سيمون) قبعته وجلس على المصطبة كأن الامور على ما يرام •

وقال : تعالي يا ماترينا • دعينا نأكل اذا كان العشاء حاضرا •

ودمدمت ماترينا بشيء مع نفسها ولم تتحرك ، بل بقيت حيث كانت بجانب التنور (وهو شبيه بالفرن الافقي ويبنى من الطابوق وله سطح افقي ، ينام عليه من ينشد مكانا دافئا) • نظرت الى احدهما اولا ثم الى الآخر • وهزت رأسها • ورأى سيمون ان

زوجته قد اغتاظت ، فاراد تمشية الامر وتظاهر انه لم يلاحظ شيئا، واخذ بذراع الغريب •

وقال : اجلس ، يا صديقي ودعنا نتناول شيئا من العشاء •

جلس الغريب على المصطبة •

وقال سيمون : الم تطبخي لنا شيئا ؟

فاحتدم غيظ ماترينا وقالت : طبخت ولكن ليس لك • فيبدو انك قد فقدت صوابك بالشرب • ذهبت لتشتري سترة من جلد الاغنام ولكنك عدت الى البيت بشيء لا يزيد على السترة التي لبستها وجلبت معك مشردا عاريا • ليس لدي عشاء لسكيرين مثلكما

فقال : كفى ، يا ماترينا • لا تحركي لسانك بلا عقل • من الافضل ان تسألي أي نوع من الرجال هذا —

فردت قائلة :

— وأنت قل لي • ماذا فعلت بالمال ؟

فتح سيمون جيب السترة واخرج الورقة النقدية ذات الثلاثة روبلات ، وفتحها •

وقال : هذه هي النقود • تريفنوف لم يدفع الدين ولكنه وعد أن يدفع قريبا •

زاد غضب ماترينا • فهو لم يشتر اية جلود غنم بل البس شخصا عاريا معطفه الوحيد ، ثم اتى به الى بيتهم •

خطفت الورقة النقدية من المنضدة واخذتها لتحفظها في امان وقالت : لا عشاء عندي لك • نحن لا نستطيع ان نطعم جميع السكارى العراة في العالم •

فقال : ماترينا ، امسكي لسانك قليلا واسمعي اولا ما يقال لك ـ !

فردت عليه : سأسمع حكمة بالغة من احمق سكير . كنت على حق عندما رفضت الزواج منك ـ سكير . الكتاب الذي اعطتني امي شربت بثمنه ، وها انت الآن ذهبت لتشتري معطفا وشربت ثمنه ايضا !

حاول (سيمون) أن يبين لزوجته انه لم يصرف سوى عشرين كوبيكا ، وحاول ان يخبرها كيف وجد الرجل ولكن ما ترينا لم تدعه يتفوه بكلمة واحدة . تحدثت كالسيل وذكرت اشياء حدثت قبل عشرين سنة .

وظلت ماترينا تتكلم وتتكلم ثم انقضت على سيمون وامسكت به من كمه .

وقالت اعطني سترتي . انا لا املك غيرها ، وانت تأخذها مني وتلبسها . هاتها ايها الكلب الاجرب ، عسى ان يأخذك الشيطان !

وبدأ (سيمون) يخلع السترة ، وقلب ردنها بطنا الى ظهر ، فأمسكت ماترينا بالسترة فانفتقت الخياطة . وخطفتها منه والقتها على رأسها وتوجهت الى الباب وفي نيتها ان تخرج ولكنها توقفت مترددة ـ أرادت ان تتخلص من غضبها ، ولكنها ارادت ايضا ان تعرف أي نوع من الرجال هذا الغريب .

(٤)

توقفت (ماترينا) وقالت : لو كان هذا رجلا طيبا لما كان عاريا . انه لا يلبس حتى قميصا . لو كان قويما لقلت اين التقيته .

فقال سيمون :هذا ما كنت احاول ان اخبرك به لما وصلت الى المقام المقدس رأيته جالسا عاريا ومتجمدا • ولم يكن الجو ليسمح بالجلوس عاريا ! ارسلني الله اليه والا لهلك •

فماذا افعل ؟ وكيف نعرف ماذا عسى ان يحدث له ؟ فاخذته والبسته وجلبته معي • لا تغضبي يا ماترينا • انه اثم • تذكري ، اننا جميعا لابد ان نموت يوما •

وصعدت كلمات غاضبة حتى بلغت شفتيها ولكنها نظرت الى الغريب وسكتت • كان جالسا على حافة المصطبة بلا حراك ويداه على ركبتيه ، ورأسه على صدره وعيناه مغمضتان ، وجبينه مقطب كأنه من ألم • وقفت ماترينا صامتة • وقال سيمون : ماترينا ، الا تحبين الله ؟

سمعت ماترينا هذه الكلمات ، ولما نظرت الى الغريب ، لان قلبها عليه فجأة وعادت من الباب • وذهبت الى التنور واخرجت العشاء • ووضعت وعاء على المنضدة وصبت شيئا من (الكفاس) وهو حساء من منقوع الشيلم وطحينة • ثم جلبت آخر قطعة من الخبز ، واخرجت سكينا وملعقتين •

وقالت : كلا اذا اردتما •

واخذ سيمون الغريب الى المنضدة •

وقال له : تفضل اجلس ايها الشاب •

تناول (سيمون) الخبز وثرده في الحساء وبدأ الاثنان يأكلان• وجلست (ماترينا) عند زاوية المنضدة وقد اراحت رأسها على يدها ونظرت الى الغريب •

وشعرت (ماترينا) بالشفقة على الغريب وبدأت تحنو عليه ، وتألق وجه الغريب بغتة ، ولم يعد مقطب الجبين ، ورفع عينيه وابتسم الى ماترينا .

وعندما انتهيا من العشاء ، رفعت المرأة الاشياء وراحت تسأل الغريب . وقالت :

— من اين أنت ؟

— أنا لست من هذه الانحاء .

— ولكن كيف جئت الى الطريق ؟

— لا استطيع ان افصح عن ذلك .

— هل سلبك احد ؟

— عاقبني الله .

— وكنت مستلقيا هناك عاريا ؟

— أجل ، كنت عاريا ومتجمدا . رآني (سيمون) واشفق عليّ . خلع عليّ معطفه ، وجاء بي الى هنا . واطعمتني أنت ، سقيتني ، واشفقت عليّ . سيجازيك الله خيرا !

نهضت (ماترينا) وتناولت من الشباك قميص سيمون الذي كانت ترقعه واعطته الى الغريب . وجلبت له سراويل .

وقالت : هاك ، ارى انك لا تملك قميصا . البسه ونم اينما تشاء ، في العلية او على التنور .

خلع الغريب السترة ولبس القميص ، واستلقى في العلية . واطفأت (ماترينا) الشمعة واخذت المعطف وصعدت فوق التنور حيث كان زوجها مستلقيا .

تستطيع ان تنام ، اذ لم يسعها ان تبعد الغريب عن فكرها •

وعندما تذكرت انه أكل آخر قطعة خبز لديهم ولم يبق عندهم شيء ليوم غد ، وفكرت بالقميص والسروال التي اعطتها له ، شعرت بالحزن ، ولكنها عندما تذكرت كيف ابتسم ابتهج قلبها •

ظلت (ماترينا) مسهدة وقتا طويلا ، ولاحظت ان سيمون كان مستيقظا ايضا ــ وسحب المعطف اليه •

ــ سيمون

ــ نعم ؟

ــ لقد اكلتما آخر ما لدينا من خبز • ولم يبق شي للصباح • ولا ادري ماذا نفعل غدا • لعلي استطيع ان استدين شيئا من جارتنا مارثا •

ــ اذا عشنا سنجد شيئا نأكله •

هدأت المرأة قليلا ثم قالت : يبدو انه رجل طيب ، ولكن لماذا لا يقول لنا من هو ؟

ــ أظن ان لديه اعذاره •

ــ سيمون !

ــ نعم ؟

ــ نحن نعطي ، ولكن لماذا لا يعطينا احد شيئا ؟

لم يعرف (سيمون) ماذا يقول ، فقال : لنكف عن الكلام • ثم ادار ظهره ونام •

(٥)

استيقظ (سيمون) في الصباح • وكان الاطفال ما يزالـــون نياما • وذهبت الزوجة الى جارتها لتستعير شيئا من الخبز • كان الغريب جالسا وحده على المصطبة في القميص والسراويل العتيق ، وينظر الى الاعلى ، كان وجهه ابهى من يوم امس •

وقال له سيمون : يا صديقي ان البطن يحتاج الى خبز والبدن العاري الى ثياب • فعلى المرء ان يعمل من اجل العيش • أي عمل تعـــرف ؟

— لا أعرف شيئا •

أدهش ذلك سيمون ولكنه قال : من يريد ان يتعلم يستطيع ان يتعلم اي شيء •

— الناس يشتغلون وساشتغل انا ايضا •

— ما اسمك ؟

— ميكائيـــل •

— حسنا يا ميكائيل ، اذا كنت لا تريد الكلام عن نفسك فهذا شأنك • ولكن عليك ان تكسب عيشك لنفســـك • واذا عملت كما اقول لك ، فاني ساقدم لك طعاما ومأوى •

— عسى الله ان يجزيك خيرا ! سوف اتعلم • ارني ماذا اعمل •

تناول سيمون غزلا من القطن ولفه على ابهامه وبدأ يفتله •

— انه سهل تماما انظر !

راقبه ميكائيل ولف شيئا من الغزل حول ابهامـــه بالطريقـــة نفسها وببراعة وراح يفتل الغزل ايضا •

ثم اراه سيمون كيف يشمع الخيط • واتقن ميكائيل ذلــك
ايضا • ثم بين له كيف يخيط ، فتعلم ميكائيل ذلك بسرعة ، وفهم
كل ما علمه سيمون من فوره • وبعد ثلاثة ايام صار يعمل كأنه كان
يخيط الاحذية طوال حياته • كان يشتغل دونما توقف ويأكل قليلا•
وعندما ينتهي العمل يجلس صامتا ، وينظر الى الاعلى • وقلما
كان يخرج الى الشارع ، ولا يتكلم الا عند الضرورة ولم ينكـت
ولم يضحك • ولم يروه يبتسم قط ، الا في المســاء الاول عندمـا
قدمت له ماترينا العشاء •

(٦)

وانصرم العام يوما بعد يوم واسبوعا بعد اسبوع ، وميكائيل
يعيش ويعمل مع سيمون • وانتشرت شهرته حتى قال الناس انـه
لا يوجد احد يخيط الاحذية باتقان وقوة مثل ميكائيــل عامــل
سيمون وكــان الناس من جميع انحــاء المنطقة يأتون من اجــل
احذيتهم ،وبدأت حاله تتحسن •
وفي يوم من ايام الشتاء ، عندما كان سيمون وميكائيل جالسين
يعملان جاءت الى الكوخ عربة على زلاقة يجرها ثلاثة خيول ذات
اجراس •• نظرا من النافذة ورايا العربة تتوقف لدى الباب ، ووثب
خادم انيق من المقصورة وفتح الباب • وخرج رجل يرتدي معطفا من
الفــراء ، وســار نحــو كــوخ سيمــون • فوثبــت ماترينـا
يرتدي معطفا من الفراء وسار نحو كوخ سيمون • فوثبت ماترينا
وفتحت الباب واسعا • انحنى الرجل ليدخل الكوخ ، وعندمـا

أستقام كاد رأسه يصل السقف ، وبدا كأنه ويملأ الجانب الـــذي يقف فيه من الحجرة .

نهض (سيمون) وانحنى ونظر الى الرجل بدهشة ، فهو لم ير احدا مثله . كان (سيمون) نحيلاً وميكائيل هزيلا وماترينـــا يابسة كالعظم ، ولكن هذا الرجل كأنه من عالم آخر . احمر الوجه، ضخم الجثة ، ذو رقبة كرقبة الثور ، كأنه صب من حديد .

ونفخ الرجل وخلع معطفه وجلس على المصطبة وقال : من منكما الاسكافي ، رب العمل ؟

تقدم سيمون وقال : انا يا صاحب السعادة .

ثم نادى الرجل غلامه : هي ، فيدكا ، اجلب الجلد !

ودخل الخادم راكضا يحمل رزمة . اخذ الرجـــل الرزمـــة ووضعها على المنضـــدة .

وقال : فكهـــا .

وفكها الغلام .

واشار الرجل الى الجلد وقال : انظر هنا ايهـــا الاسكافي . أترى هذا الجلد ؟

— نعم يا صاحب الفضيلة .

— ولكن اتعرف اي نوع هذا الجلد ؟

تلمس (سيمون) الجلد وقال : انه جلد جيد .

— جيد ، حقا ! انت ايها الاحمر لم تر في حياتك مثل هذا الجلد. انه الماني ويكلف عشرين روبلا .

ارتعب سيمون وقال : واين يمكن ان ارى مثل هذا الجلد .

ـ هذا مضبوط ! والان أتستطيع ان تصنع لي منه حذاء •
ـ نعم ، استطيع يا صاحب السعادة •

ثم صاح به الرجل : تستطيع ذلك ، اليس كذلك ؟ وتذكر لمن ستصنع الحذاء ، وما نوع الحذاء ؟ يجب ان تصنع لي حذاء ، البسه سنة ولا يفقد شكله ولا يتفتق • اذا كنت تستطيع عمل ذلك• خذ الجلد وفصله ، واذا كنت لا تستطيع ، قل ذلك • واني احذرك الآن ، اذا تفتق الحذاء او فقد شكله في غضون سنة فاني سألقيك في السجن • واذا لم يتفتق او يفقد شكله طوال السنة ، فاني سادفع لك عشرة روبلات عن عملك •

ارتعب سيمون ولم يعرف ماذا يقول • فنظر الى ميكائيل ووكزه بمرفقه همس : هل آخذ العمل ؟

اومأ ميكائيل برأسه كأنه يقول : نعم ، خذه •

وفعل بما نصحه ميكائيل وتعهد بصنع الحذاء الذي لن يفقد شكله ولن يتفتق مدة سنة كاملة •

ونادى الرجل خادمه وامره ان يخلع الحذاء من ساقه اليسرى التي مدها •

وقال : خذ قياسي •

أخذ (سيمون) قياسا ورقيا طوله سبعة عشر عقدة ، وعدله ثم جثا على ركبتيه ومسح يديه جيدا بمئزره لئلا يلوث جوارب الرجل وبدأ يقيس •• قاس الاخمص ثم المشط وراح يقيس ربلة الساق ، ولكن الورقة كانت أقصر • وكانت ربلة الساق بغلظ دعامة خشبية •

— انتبه ولا تجعله ضيقا على الساق .

واخذ (سيمون) ورقة اخرى ، وحرك الرجل اصابعه في الجورب وراح ينظر حوله الى من في الكوخ ، فرأى ميكائيل .

وسأل : من ذلك الذي معك ؟

— هذا عاملي ، وهو الذي سيخيط الحذاء .

فقال الرجل مخاطبا ميكائيل : انتبه وتذكر ان تجعله يدوم سنة .

نظر (سيمون) ايضا الى ميكائيل وراى ان ميكائيل لم يكن ينظر الى الرجل بل كان يحدق في الركن الذي وراء الرجل كأنه لم يرى احدا فيه . وظل ميكائيل ينظر وينظر وابتسم فجأة وغدا وجهه اكثر تألقا .

فأرعد الرجل قائلا : لماذا تبسم ايها الاحمق ؟ الافضل لك ان تتحقق من ان الحذاء يكون حاضرا في حينه .

فقال ميكائيل : سيكون حاضرا في الوقت المناسب .

فقال الرجل : حسنا اذن انتبه الى ذلك جيدا .

ولبس حذاءه ومعطفه ولفه حول جسمه جيدا وتوجه الى الباب ولكنه نسي ان ينحني فضرب رأسه الاسكفة . فشتم وفرك رأسه ، ثم اتخذ مقعده في العربة . وانطلق .

وعندما ذهب ،قال سيمون : انك امام شخصية عظيمة ! ولا يمكنك ان تقتله بمطرقة ضخمة . كاد ان يخلع اطار الباب . ولكنه لم يصب بأذى .

وقالت ماترينا : في مثل عيشه هذا ، كيف لا يكون قويا ؟ الموت نفسه لا يستطيع ان يمس مثل تلك الصخرة .

(٧)

ثم قال سيمون لميكائيل : ها نحن اخذنا العمل ، فيجب ألا نزج انفسنا في مأزق بسببه . الجلد غال والرجل سيء الطبع . فيجب ان لا نخطأ . تعال ! عينك اصدق من عيني ويداك ابرع وادق من يديّ ، فخذ القياس هذا ، وفصل الحذاء . اما أنا فسوف اكمل خياطة مقدمة الحذاء .

وعمل (ميكائيل) كما قيل له . واخذ الجلد ، ونشره على المنضدة ، وطواه نصفين . واخذ سكينا وبدأ يقص .

جاءت (ماترينا) وصارت تراقبه وهو يفصل ودهشت لما رأت طريقة العمل . فقد اعتادت (ماترينا) رؤية صنع الاحذية . ونظرت فرأت ان ميكائيل لم يقص الجلد للحذاء ، بل قصه بشكل مستدير .

وأرادت ان تقول شيئا ولكنها فكرت في نفسها : لعلي لا افهم كيف تصنع احذية الرجال . واظن ان (ميكائيل) يعرف اكثر عن ذلك الامر ، ولن اتدخل .

وعندما قص (ميكائيل) الجلد اخذ خيطا وبدأ يخيط بطرف واحد كما في خفاف النساء وليس بطرفين كما في احذية الرجال .

وتساءلت ماترينا في نفسها مرة اخرى ولكنها لم تتدخل ايضا ،

وظل (ميكائيل) يخيط باستمرار حتى الظهر . ثم نهض سيمون للغداء ونظر حوله فرأى ان (ميكائيل) قد صنع خفا من الجلد .

فزمجر سيمون وفكر : آه ! كيف يمكن لميكائيل الذي اشتغل معي سنة كاملة ولم يخطيء قط ، ان يقوم بمثل هذا الشيء الرهيب؟ طلب الرجل حذاء طويلا ، بحاشية للتقوية ، مع مقدمة كاملة ، وها هو ذا (ميكائيل) يصنع خفا رقيقا بنعل واحد ، فاتلف الجلد . ماذا أقول للرجل ؟ لا استطيع ابدا ان اعوضه عن هذا الجلد .

وقال لميكائيل : ماذا تفعل يا صديقي ؟ لقد دمرتني ! انـت تعرف ان الرجل طلب حذاء طويلا ،ولكن انظر ماذا صنعت !

وما كاد يبدأ بعتاب ميكائيل حى سمع المطرقة الحديد المعلقة على الباب ترن كان بعض الناس يدقها . نظروا من الشباك ، فرأوا رجلا قادما على حصان ، نزل الرجل وربط الحصان . وفتحوا الباب . كان الخادم الذي اتى بصحبة سيده .

قال : نهاركم سعيد .

رد سيمون عليه : نهارك سعيد . ماذا نستطيع ان نقدم لك ؟

فقال : أرسلتني سيدتي من اجل الحذاء .

— وماذا بشأن الحذاء ؟

— لم يعد سيدي محتاجا الى الحذاء ، فقد مات .

— أهذا ممكن ؟

— لم يعش حتى يصل بيته بعد ان غادركم ، لقد مات في العربة. وعندما وصلنا البيت وجاء الخدم لمساعدته في النزول ، تدحرج كالكيس . كان ميتا ومتيبسا ولم يستطيعوا اخراجه الا بصعوبة . فارسلتني سيدتي الى هنا وهي تقول : قل للاسكاف ان الرجـل الذي طلب منه صنع حذاء وترك الجلد عنده لم يعد محتاجا الـى

الحذاء ، ولكن يجب ان يسرع بصنع خف رقيق من اجل الجثة . وأمرتني ان انتظر حتى يكمل واجلبه معي . ولهذا جئت .

جمع (ميكائيل) بقايا الجلد ، ولفها ، واخذ الخف الذي صنعه ، وضرب الواحد بالاخر ، ومسحه بمئزره وقدمه مع لفة الجلد الى الخادم الذي اخذهما وقال : وداعا ، يا سادة ، ونهاركما سعيد !

(٨)

انصرمت سنة اخرى ، وكان (ميكائيل) يعيش سنته السادسة مع سيمون . عاش كالسابق ، لا يخرج الى اي مكان ، ولا يتكلم الا بما هو ضروري . ولم يبتسم الا مرتين في هذه السنين كلها — مرة عندما قدمت (ماترينا) الطعام اليه ، ومرة اخرى عندما جاء الرجل في كوخهم . كان (سيمون) اشد بهجة مع عامله . ولم يسأله بعد ذلك من أين جاء ، وكان يخشى ان يذهب عنه ميكائيل .

كانوا جميعا ذات يوم في البيت . وقد وضعت (ماترينا) القدور في الموقد . وكان الاطفال يتراكضون على المصاطب وينظرون من الشباك . (سيمون) كان يخيط عند احد الشبابيك ، وكان (ميكائيل) يثبت عقب حذاء لدى شباك آخر .

ركض احد الاطفال على المصطبة الى ميكائيل وانحنى على كتفه ونظر من الشباك . وقال : انظر يا عمي ميكائيل ! هناك سيدة مع طفلتين ! يبدو انها قادمة الى هنا . واحدى البنتين عرجاء

عندما قال الولد ذلك ، القى (ميكائيل) عمله ، والتفت الى الشباك ونظر الى الشارع •

دهش (سيمون) • فلم يعتد ان يرى ميكائيل ينظر الى الشارع، ولكنه الآن اقترب من الشباك وحدق في شيء • ونظر سيمون ايضا الى الخارج ورأى امرأة حسنة الملبس تتجه نحو كوخه وتقود بيديها طفلتين ترتديان معطفين من فراء وشالين من الصوف • ولا يكاد يمكن التفريق بين البنتين لولم تكن احداهما عرجاء في رجلها اليسرى وتظلع في مشيتها •

دخلت المرأة رواق الكوخ ثم المجاز • رفعت المزلاج وفتحت الباب • وجعلت البنتين تدخلان اولا ثم تبعتهما الى داخل الكوخ •

— نهاركم سعيد ايها الناس الطيبون !

فقال سيمون : تفضلن رجاء ، ماذا يمكن ان نفعل من اجلكن؟ جلست المرأة الى المنضدة • والتصقت البنتان بركبتيها ، خائفتين من الناس في الكوخ •

قالت : اريد حذائين من جلد لهاتين البنتين ، لاجل فصل الربيع •

— نستطيع ان نفعل ذلك ، مع اننا لم نصنع مثل هذه الاحذية الصغيرة ، لكننا نستطيع ان نصنعهما ، اما بحاشية للزينة ، او بجزء يقلب ، مبطنة بالكتان • عاملي ، ميكائيل ، بارع في عمله •

نظر سيمون الى ميكائيل ورأى انه ترك عمله وراح ينظر الى البنتين • دهش سيمون • كانت البنتان جميلتين حقا ، لهما عيون سود ، وخدود ريا وردية ، وتلبسان منديلين لطيفين ومعطفين من

فراء ، ولكن (سيمون) لم يفهم لماذا ينظر (ميكائيل) اليهما تلك النظرة ــ كأنه يعرفهما من قبل • تحير ولكنه واصل حديثه مع المرأة واتفقا على السعر • واخذ القياسات • ورفعت المرأة البنت العرجاء الى حضنها وقالت : خذ قياسين لهذه البنت واصنع فردة واحدة للرجل المعاقة وثلاثا للسليمة •

كلا البنتين لهما القياس نفسه • انهما توأمان •

اخذ (سيمون) القياس وتكلم عن البنت العرجاء : كيف حدث لها ذلك ؟ انها بنت جميلة جدا • هل ولدت كذلك ؟

ــ لا ، امها سحقت رجلها •

ثم شاركت (ماترينا) في الحديث • وتساءلت من هي تلك المرأة ومن الطفلتان ؟ وقالت : الست امهما ، اذن ؟

ــ لا ، ايتها المرأة الطيبة • لست امهما ، ولا قريبتهما ، انهما غريبتان عني • ولكني تبنيتهما •

ــ هما ليستا بنتيك وتحبينهما حبا جما ؟

ــ وكيف لا احبهما وقد ارضعتهما من ثديي ؟ كان عندي ولد ولكن الله اخذه • فصرت احبهما حبا جما •

ــ طفلتا من هما اذن ؟

(٩)

وراحت المرأة تسرد عليهم القصة كاملة :

ــ قبل نحو ست سنوات مات والدهما في اسبوع واحد : دفن الوالد يوم الثلاثاء • وولدت الام هاتين التوأمين بعد ثلاثة

ايام من موت الاب ولم تعش بعد ذلك يوما واحدا ، فدفنت يوم الجمعة • وكنا انا وزوجي نعيش فلاحين في القرية • وكنا جيرانا لهم ، فناء بيتنا ملاصق لفناء بيتهم • كان والدهما رجلا وحيدا ، يشتغل حطابا في الغابة • سقطت احدى الاشجار التي كانوا يقطعونها عليه وسحقته ولم يكادوا يصلون به الى البيت حتى فاضت روحه الى ربه • وفي ذلك الاسبوع نفسه ولدت زوجته توأمين ــ هاتين البنتين الصغيرتين • كانت فقيرة ووحيدة ولم يكن عندها احد ، صغير او كبير ، فولدت وحدها ولاقت الموت وحدها •

ذهبت في صباح اليوم التالي لكي اراها ولكنني عندما دخلت الكوخ كانت المسكينة متخشبة وباردة • وعند احتضارها تدحرجت على هذه الطفلة وسحقت ساقها • وجاء اهل القرية الى الكوخ وغسلوا الجثة ، واخرجوها وصنعوا لها تابوتا ودفنوها • كانوا أناسا طيبين ، وتركت الطفلتان وحيدتين ، فما العمل ؟ كنت المرأة الوحيدة التي عندها طفل آنذاك • كنت ارضع طفلي البكر وعمره ثمانية اسابيع • فاخذتهما موقتا ، وجاء الفلاحون معا ، وفكروا وتشاوروا ما يمكن عمله بشأنهما ، فقالوا لي في النهاية : الافضل يا (ميري) في الوقت الحاضر ان تحتفظي بالطفلتين ، ثم سنرتب أمرهما في ما بعد •

فارضعت البنت السليمة من صدري ولم ارضع المعوقة اول الامر • ولم اكن اظن انها ستعيش • ولكنني فكرت في نفسي : لماذا اترك البريئة المسكينة تعاني من جوع ؟ اشفقت عليها وبدأت

ارضعها • وهكذا ارضعت ولدي وهاتين البنتين ـ الثلاثة معا ـ من صدري • كنت صغيرة وقوية ، وطعامي جيد ، ووهبني الله حليبا وفيرا جدا بحيث كان يفيض احيانا • اعتدت احيانا ان ارضع اثنين منهم في آن واحد ، وينتظر الثالث ، فاذا شبع احدهما كنت ارضع الثالث • وكانت مشيئة الله ان تكبر البنتان في حين مات ولدي قبل ان يبلغ الثانية من العمر ولم ارزق باي طفل بعد ذلك ، على الرغم من ازدهار اوضاعنا • وصار زوجي الآن يشتغل لدى تاجر الحبوب في الطاحونة ، واجره جيد ونحن مرفهون ، ولكن ليس لدي اطفال من نسلي ، ولولا هاتان البنتان لشعرت بالوحشة ! فكيف لا احبهما ؟ أنهما بهجة حياتي •

وضمت العرجاء اليها بيد ومسحت دموعها عن خدها بيدها الاخرى •

وتنهدت (ماترينا) وقالت : صدق المثل القائل : قد يعيش المرء بلا أم ولا اب ولا يمكن ان يعيش بلا رب •

وعندما كانتا تتحادثان اشرق الكوخ بغتة بالنور كأن برقا أقبل من الركن الذي يجلس فيه (ميكائيل) • ونظر الجميع نحوه ورأوه جالسا ويداه على ركبتيه ، وهو يحدق الى الاعلى ويبتسم •

(١٠)

مضت المرأة مع البنتين • ونهض (ميكائيل) من المصطبة والقى عمله وخلع مئزره ، ثم انحنى الى (سيمون) وزوجته وقال : وداعا يا سادتي • لقد غفر الله لي • فاسأل الغفران منكما ايضا عن اي تقصير •

ورأوا نورا يشع من (ميكائيل) • فنهض (سيمون) وانحنى الى ميكائيل وقال : ارى يا ميكائيل انك لست انسانا اعتياديا ولا استطيع ابقاءك ولا سؤالك ، ولكن قل لي فقط : كيف انك عندما وجدتك وجلبتك الى البيت ، كنت كئيبا ، وعندما اعطتك زوجتي طعاما ابتسمت لها واشرق وجهك ؟ ثم عندما جاء الرجل يطلب عمل حذاء ابتسمت مرة اخرى •

وصرت اكثر اشراقا ؟ والان ، عندما جلبت المرأة الصغيرتين ابتسمت مرة ثالثة واصبحت مشرقا مثل نور النهار ؟ قل لي ، يا ميكائيل ، لماذا تألق وجهك ولماذا ابتسمت ثلاث مرات ؟

فاجاب ميكائيل : اشرق النور مني لان الله عاقبني وقد عفا عني الآن • وابتسمت ثلاث مرات لان الله ارسلني لاتعلم ثلاث حقائق فتعلمتها • تعلمت واحدة عندما اشفقت زوجتك عليّ ولهذا ابتسمت اول مرة • وتعلمت الثانية عندما طلب الرجل الغني صنع حذاء ثم ابتسمت ثانية • والآن ، عندما رأيت الصغيرتين ، تعلمت الحقيقة الثالثة والاخيرة وابتسمت للمرة الثالثة •

فقال سيمون : قل لي ، يا ميكائيل ، لماذا عاقبك الله ، وماذا كانت الحقائق الثلاث ؟ فأنا ايضا اريد ان اعرفها •

أجاب ميكائيل : عاقبني الله لانني عصيته • كنت ملكا في السماء وعصيت الله • فقد ارسلني الله لاقبض روح امرأة • طرت الى الارض ورأيت المرأة وحيدة وقد ولدت توا بنتين توأمين • وكانتا تتحركان بوهن الى جانب امهما ولكنها لم تستطيع ان ترفعهما الى صدرها • وعندما رأتني ، فهمت ان الله ارسلني

لاقبض روحها فبكت وقالت : « يا ملك الله ! مات زوجي قتيلا بشجرة سقطت عليه • وليس لي اخت ولا خالة ولا ام ولا احد يرعي اليتامى • فارجو الا تقبض روحي ! دعني اربي طفلتي وارضعهما حتى تستطيعا المشي قبل ان اموت • اطفال لا يمكن ان يعيشوا بلا أم او اب » • فاصعيت اليها ووضعت احدى الطفلتين الى صدرها ووضعت الاخرى على ذراعها وعدت الى ربي في السماء • طرت الى ربي وقلت : لم استطع قبض روح الام • فقد قتلت شجرة زوجها • وولدت بنتين توأمين وتوسلت اليّ الا اقبض روحها • وقالت : « دعني اربي طفلتي وارضعهما حتى تكبرا وتمشيا • فلا يمكن للاطفال ان يعيشوا من دون ام او اب » • ولم اقبض روحها • فقال الله : اذهب واقبض روح الام ، وتعلم ثلاث حقائق : تعلم « ماذا يعمر قلب الانسان » ؟ و « وماذا لا يعطى للانسان » ؟ و « باي شيء يعيش الانسان» ؟ اذا تعلمت هذه الامور ، ستعود الى السماء• فعدت طائرا الى الارض وقبضت روح الام • ووقعت الطفلتان عن صدرها • وتدحرج جسمها على الفراش وسحق احدى البنتين ، التوت ساقها • وصعدت فوق القرية ، اريد ان اخذ روحها الى الله ولكن ريحا امسكت بي وضربت جناحي فهويت ، وارتفعت روحها الى الله وحدها ، بينما سقطت انا الى الارض على جانب الطريق •

(١١)

وفهم (سيمون) و (ماترينا) من كان الذي عاش معهم ، ومن البسها واطعمها • فبكيا من خوف ومن فرح • وقال الملك : كنت

وحيدا ، غاريا ، في الحقل • ولم اكن اعرف احتياجات الانسان ولا البرد ولا الجوع حتى اصبحت انسانا • وتضورت جوعا ، وتجمدت من البرد ، ولم اعرف ماذا افعل •رأيت قرب الحقـــل الذي كنت فيه ، مقاما بني لله ، فذهبت اليه أملا في ايجاد مأوى ، ولكن المقام كان مقفلا ولماستطع الدخول • فجلست خلف المقام لاتقي الريح في اقل تقدير • واقبل المساء ، وكنت جائعا ، متجمدا ، متألمـــا • وسمعت فجأة رجلا قادما في الطريق يحمل حذاء ويكلم نفســـه • رأيت وجه انسان اول مرة بعد ان اصبحت رجلا ، وبدا لي وجهه رهيبا ، فالتفت عنه • وسمعت الرجل يكلم نفسه كيف يقي جسمه من برد الشتاء وكيف يطعم زوجته واطفاله • وفكرت : اني هالـــك من البرد والجوع وهذا رجل لا يفكر الا باكساء نفسه وزوجتـــه وكيف يحصل على الخبز لهم • انه لا يستطيع مساعدتي • عندمـــا رآني الرجل قطب جبينه فأصبح اشد رهبة ، وتركنـــي في الجهـــة الاخرى • فيئست ولكني سمعته يرجع من فوره • نظرت الى الاعلى ولم الحظ الرجل نفسه : رأيت الموت على وجهه ، اول مرة • ولكني رأيته الآن حيا ، وادركت فيه حضرة الله • اقبل نحوي والبسني واخذني معه ، واصطحبني الى بيته • دخلت البيت • جاءت امرأة لاستقبالنا وبدأت تتكلم • كانت المرأة اشد هولا من الرجل وكانت روح الموت تخرج من فمها • لم استطع التنفس بسبب رائحة الموت النتنة التي انتشرت حولها • ارادت ان تطردني الى الخارج حيث البرد • وعرفت انها ان فعلت ذلك ، سوف تموت • وتكلم زوجها معها في الحال عن الله ، فتبدلت المرأة فورا ، وعندما جلبت لي الطعام

ونظرت اليّ ، نظرت اليها فرأيت ان الموت لم يعد يسكن فيها ، فقد اصبحت حية ، ورأيت الله فيها ايضا .

فتذكرت الدرس الاول الذي القاه اليّ ربي : ماذا يعمر قلب الانسان ؟ وعرفت ان الحب يعمر قلب الانسان . ففرحت لانه بدأ يريني ما وعدني فابتسمت اول مرة . ولكنني لم اتعلم كل شيء . لم اتعلم بعد : ماذا لا يعطى الى الانسان ؟ وبأي شيء يعيش الانسان ؟

عشت معكم ومضت سنة . وجاء رجل يطلب صنع حذاء يلبسه سنة لا يتبدل شكله ولا يتفتق . نظرت اليه ورأيت فجاة وراء ظهره رفيقي ملك الموت . لم ير الملك احد غيري . عرفته وعرفت انه سيقبض روح الرجل الغني قبل غروب الشمس . ففكرت في نفسي الرجل يريد شيئا يدوم سنة ، ولا يعلم انه سيموت قبل المساء . وتذكرت : تعلم ماذا لا يعطى الى الانسان .

تعلمت الآن ماذا يعمر قلب الانسان وعرفت ماذا لا يعطى اليه. ان الانسان لا يعطى معرفة احتياجاته . فابتسمت مرة ثانية . وفرحت برؤية صديقي الملك ــ وفرحت ان الله كشف لي الحقيقة الثانية .

ولكنني ما زلت لا اعرف كل شيء . فلم اعرف بماذا يعيش الانسان ؟ فمضيت اعيش منتظرا حتى يكشف الله لي الحقيقة الاخيرة . في السنة السادسة جاءت البنتان التوأمان مع المرأة . وعرفت البنتين وسمعت كيف بقيتا على قيد الحياة .

لما سمعت القصة فكرت في نفسي : « تضرعت الام اليّ من اجل الطفلتين وصدقت قولها ان الاطفال لا يعيشون من دون ام او

أب ، ولكن امرأة غريبة ارضعتهما » • ولما ابدت المرأة حبها للطفلتين اللتين لم تكونا من نسلها ، وبكت عليهما ، رأيت فيها الله القيوم وفهمت : بأي شيء يعيش الانسان ؟ وعرفت ان الله كشف لـي الحقيقة الاخيرة وانه غفر لي ذنبي • فابتسمت ثالث مرة •

(١٢)

وتعرى بدن الملك واكتسى بنور لا يمكن لعين ان تنظر اليه • وصار صوته اعلى كأنه لا يأتي منه بل من السماوات العلى •

وقال الملك : تعلمت ان الناس لا يعيشون بالاهتمام بانفسهم بل بالحب •

ولم تعط الام علما ماذا يحتاج اطفالها من اجل حياتهم • ولم يعط الرجل الغني علما ماذا يحتاج لنفسه ، ولم يعط احد من الناس علما هـل كان يحتاج حذاء ام كفنا لجنازته عند حلول المسـاء •

بقيت حيا ، عندما كنت انسانا ليس بالاهتمام بنفسي بل بحب لدى عابر سبيل وبعطفه ومحبة منه ومن زوجته ، ولم تبق الطفلتان على قيد الحياة برعاية من امهما بل بحب في قلب امرأة • غريبـة عليهما ، اشفقت عليهما واحبتهما • ولا يعيش الناس بالتفكير في سبيل رفاهيتهم ، بل بالحب الذي في قلب الانسان •

عرفت قبل ذلك ان الله وهب الانسان حياة ورغبة في الحياة • وفهمت الآن اكثر من ذلك •

فهمت ان الله لا يريد للناس عيشا متفرقا ، لذلك لا يكشف لهم ماذا يحتاج كل واحد منهم لنفسه ، ولكنه يريد لهم العيش مجتمعين ولذلك يكشف لكل منهم ما الضروري للجميع ٠

وفهمت الآن انه على الرغم مما يبدو للناس انهم يعيشون بالاهتمام بأنفسهم ، الا انهم في الحقيقة يعيشون بالحب وحده ٠ وان من يعمر الحب قلبه ، يعمر الله قلبه ، لان الله هو الحب ٠

ورفع الملك الثناء لله فارتعش الكوخ لانشاده ، وانفتح السقف وارتفع عمود من نور من الارض ، فهوى سيمون وزوجته وأطفالهما على الارض ، وظهر على كتفي الملك جناحان وارتفع الى السماوات العلى ٠

وعندما افاق (سيمون) ، وجد الكوخ على عهده ، وليس فيه أحد غير عائلته ٠

سنة (١٨٨١) م

شرارة مهملة تحرق بيتاً



في زمن قديم ، عاش في احدى القرى ، فلاح اسمه (ايفان شجير باكوف) كان مرفها ، وفي عنفوان الحياة ، وهو خير من يعمل في القرية ، وعنده ثلاثة ابناء ، قادرون جميعا على العمل . الابن الاكبر متزوج والثاني يوشك ان يتزوج والثالث بدأ يمارس الحراثة . وكانت زوجة ايفان امرأة بارعة ، مقتصدة . وقد اسعدهم الحظ بكنة هادئة شغول . ولم يمنع (ايفان) عائلته شيء من العيش السعيد . ولم يكن عندهم سوى فم واحد عاطل عليهم اطعامه هو والد (ايفان) العجوز الذي يعاني من ضيق التنفس ، وهو طريح المرض على ظهر التنور منذ سبع سنوات . وكان لدى (ايفان) كل ما يحتاج اليه : ثلاثة خيول ومهر ، وبقرة ذات عجل ، وخمسة عشر خروفا . وكانت المرأتان تخيطان جميع الملابس للعائلة ، فضلا عن ابداء المساعدة في الحقل . وكان الرجال يفلحون الارض . وكان يتوفر لديهم دائما من الحبوب ما يبقى الى ما بعد الحصاد التالي ويبيعون مقدارا من الشوفان يكفي لدفع الضرائب وتوفير احتياجاتهم الاخرى . فعاش (ايفان) وابناؤه عيشة رغيدة لولا شيء من الضغينة بينه وبين جاره (جبريل) الاعرج ، ابن غوردي ايفانوف .

ومادام غوردي على قيد الحياة ، والد ايفان قادرا على تدبير شؤون بيته ، عاش الفلاحان كما ينبغي ان يعيش الجيران . فاذا

احتاجت نساء اي من البيتين منخلا أو طستا ، او عمل الرجال كيسا، او اذا انكسرت عجلة العربة ولا يمكن تصليحها فورا ، فقد اعتادوا ان يرسلوا طلبا الى البيت الآخر ويساعد بعضهم بعضا كما يقتضي التعاون بين الجيران واذا ضل عجل في ميدان دراسة حنطة الجيران، فانهم يخرجونه ويقولون : « لا تدعوه يدخل مرة اخـرى • فان حبوبنا ما تزال هناك » • اما حدوث اشياء مثل اغـلاق مخـازن الحبوب او المباني الخارجية ، او اخفاء شيء عن الاخر او الغيبة فلم يفكر بها احد منهم في تلك الايام •

تلك كانت ايام الاباء • وعندما صار الابناء رؤساء العوائل ، تبدل كل شيء •

فقد بدأ الامر بشيء تافه •

كان لدى كنة ايفان دجاجة بدأت تبيض مبكرا في ذلك الموسم، واخذت المرأة تجمع البيض من اجل عيد الفصح • وكانت تذهب كل يوم الى مرأب العربة وتجد بيضة في العربة ، ولكن الدجاجة طارت عبر سياج الجيران ، عندما ارعبها الاطفال ، فباضت عندهم • سمعت المرأة قوقأة الدجاجة ولكنها قالت لنفسها : ليس لدي وقت الآن • يجب ان ارتب البيت ليوم الاحد • وسوف اجلب البيضة فيما بعد •

ذهبت في المساء الى العربة ولكنها لم تجد البيضـة فيها ، فذهبت وسألت عمتها ، ام زوجها ، وخا زوجها هل اخـذ احـد منهما البيضة • لا ، لم يأخذاها • ولكن (تاراس) ، الاخ الاصغر قال : دجاجتك باضت في حوش الجيران ، فقد كانت تقوقيء هناك، وعادت تطير فوق السياج من عندهم •

ذهبت المرأة ونظرت الى الدجاجة فوجدتها في مجثمها مع الدجاجات الاخرى ، وقد اطبقت عينيها ، وهي توشك ان تنام . ونمنت المرأة لو تستطيع سؤال الدجاجة ومعرفة الجواب منها .

ثم ذهبت الى بيت الجيران ، فخرجت ام جبريل اليها .

— ما تريدين ايتها الشابة ؟

— ايتها الجدة ، تعرفين ، ان دجاجتي طارت اليكم هذا الصباح. ألم تبض عندكم ؟

— اننا لم نرها قط . ان دجاجتنا والحمد لله بدأت تبيض منذ وقت طويل . ونحن نجمع بيضنا ولا حاجة بنا الى بيض الناس الآخرين ! ونحن لا نخرج للبحث عن البيض في بيوت الناس الاخرين ، ايتها الصبية !

اغتاظت الشابة وقالت اكثر مما ينبغي قوله . فردت عليها جارتها باكثر منها ، واخذت كل مرأة تعدد مساويء الاخرى . وصادف ان مرت في ذلك الوقت زوجة ايفان التي كانت في طريقها الى جلب الماء ، واشتركت . وركضت زوجة (جبريل) الى الخارج وبدأت تؤنب الشابة على اشياء حدثت فعلا وعلى اشياء لم تحدث قط . ثم تحول الامر الى صخب واهتياج ، الجميع يصيحون في وقت واحد وتحاول كل واحدة منهن ان تلفظ كلمتين في آن واحد ، ولا تختار كلماتها .

« انت كذا » ! و « أنت كيت ! » و « أنت لصة ! » و « أنت كلبة! » و « انت تميتين عمك والد زوجك جوعا ! » و « انت تافهة »! وهلم جرا .

« انت ثقبت المنخل الذي اعرته اليك يا كديشة ! » « وانت تحملين دلويك على نيرنا ـ فاعيديه الينا فورا ! »

وامسكت كل واحدة منهن بالنير ـ الخشبة التي تحمل بها الدلاء ـ فأريق الماء ، وخطفت كل واحدة شال الاخرى ، وبدأن العراك • وكان جبريل عائدا من الحقل ، فتوقف وانحاز الى زوجته• واندفع ايفان وابنه راكضين الى الخارج واشتركا مع الباقين • كان ايفان رجلا قويا ففرقهم جميعا ، ونتف قبضة من شعر لحية جبريل • وتقاطر الناس ليروا ماذا حصل ، وفرقوا المتشاجرين بصعوبة بالغة •

لف جبريل الشعر المنتزع من لحيته في ورقة وذهب ليشتكي على ايفان في دار العدل • وقال : « انا ما ربيت لحيتي حتى ينتفها ايفان المجدور » • وراحت زوجته متبجحة الى الجيران قائلة : « انهم سيحكمون على ايفان ويرسلونه الى سيبريا » نمت العداوة •

وحاول الشيخ ، من مرقده على ظهر التنور ، اقناعهم من البداية في احلال السلام ، ولكنهم لم يستمعوا اليه • فقال لهم • هذا طريق الحماقة يا بني ، ان تتشاجروا عن امور تافهة • فكروا جيدا ! بدأ الامر بسبب بيضة • لعل الاطفال اخذوها ـ وماذا يهم ؟ وما قيمة البيضة ؟ الله يبعث ما يكفي الجميع ! وافرضي ان جارتك قالت كلمة جارحة ـ اصلحيها أنت • وبيني لها كيف تقول كلمة طيبة ! اذا نشب شجار ـ حسنا ، فان مثل هذه الاشياء ستحدث • كلنا آثمون ، ولكن أصلحوا ذات البين وضعوا نهاية للامر ! اذا غذيتم غضبكم ساءت اموركم !

ولكن الشباب لم يرغبوا في الاستماع الى الشيخ معتقدين انـه خرف ، لا معنى له • ولا يريد ايقان ان يتشاجر لجاره •

فقال : أنا لم انتف لحيته ، هو نفسه انتزع الشعر من لحيته ، ثم ان ابنه قطع جميع ازرار قميصي ومزقه ••• انظر اليه !

وتقدم (ايقان) أيضا بالشكوى لدى المحكمة • وجـرت محاكمتها امام قاضي الصلح ودار العدل وفي اثناء ذلك كله اختفى رابط العجلات من عربة جبريل • اتهمت نساء جبريل ابـن ايقان بأخذه • وقلن : رأيناه في الليل يمر بشباكنا الى العربة • وقـال أحد الجيران انه رآه في الحانة يهب الرابط الى مالك الارض •

فذهبوا الى المحكمة عن ذلك أيضا • أما في البيت فلم يمـر يوم دونما خصام او عراك • وصار الاطفال يعير بعضهم بعضـا ، وقد تعلموا ذلك من كبارهم • واذا صادف التقاء النساء عند ضفة النهر حيث يذهبن لغسل الملابس فان أيديهن لا تتحرك في الغسل كما تترك ألسنتهن في « النقنقه » والمناكدة •

كان الطرفان يفتري أحدهما على الاخر فقط ، ولكنهم صاروا يخطفون كل ماتقع عليه ايديهم ، وحذا الاطفال حذوهم • وغدت الحياة أصعب وأصعب عليهم • وظل كل من (ايقان) و (جبريل) يستدعي احدهما الاخر الى مجلس القرية ودار العـدل وأمـام قاضي الصلح حتى تعب القضاة منهما • وكان (جبريل) حينـاً يجعل (ايقان) يغرم أو يسجن ، وكان ايقان يفعل ذلك بجبريل حينا اخر • وكلما زاد غيظ احدهم على الاخر زاد حقدهم — مثل الكلاب التي تهاجم بعضها بعضا وتزداد اهتياجا كلما طال عراكها •

فاذا ضربت كلبا من الخلف ظن ان الكلب الاخر يعضــه فيزداد ضراوة • وكذلك أمر هذين الفلاحين : يذهبان الى المحكمــة ، فيغرم احدهما او يحبس ، ولكن ذلك يزيد غيظ احدهمــا علــى الاخر • فيقول : « انتظر قليلا ، وسأجعلك تدفع عن ذلــك » • التنور وحده ظل يكرر ويقول : ابنائي ، ماذا تفعلون ؟ كفوا عن الرد عليهم • التزموا باعمالكم ، ولا تحملوا حقدا ــ فذلك خير لكم • فكلما زاد حقدك زاد الامر سوءا •

ولكنهم لم يستمعوا اليه •

في السنة السابعة وفي احد الاعراس عيرت كنة (ايفان) جارها جبريل بالقبض عليه متلبسا بسرقة حصان • كان (جبريل) ثملاً فلم يتمالك نفسه من الغضب ، وضرب المرأة ضربة القتها طريحة الفراش اسبوعا ، وكانت حاملاً في ذلك الحين • سُرَّ (ايفان) بذلك فذهب الى الحاكم لتقديم شكوى • « سأتخلص الان من جاري • ولن ينجو من السجن أو النفي الى سيبريا » • ولكن رغبة (ايفان) لم تتحقق ، فقد رفض الحاكم القضية • بعــد أن فحصت وغادرت فراش المرض وزاولت عملها ولم تبدُ عليها علائم أية اصابة • فذهب (ايفان) الى قاضــي الصلح ولكنه أحــال القضية الى دار العدل • فحث ايفان نفسه على دعوة الكاتــب ورئيس دار العدل الى شراب ، فاستحصل حكماً علــى جبريــل بالجلد • وقرأ الكاتب قرار الحكم على جبريل : قررت المحكمة ان يجلد جبريل غورديف عشرين جلدة بقضبب من شجر البتولا في دار العدل •

سمع (ايفان) الحكم يتلى ونظر الى (جبريل) ليرى كيف يتلقاه • شحب جبريل شحوب الموتى ، واستدار وخرج فتبعه ايفان وهو يقصد في الحقيقة أن يولي الحسان رعايته ، وسمع جبريل يقول : « حسنا ، سيجعلني اجلد على ظهري : وسيجعله يلتهب ، ولكن سيلتهب شيء من اشيائه اسوأ من ذلك » •

سمع (ايفان) تلك الكلمات ، فعاد مسرعا الى المحكمة وقال: ايها القضاة العادلون ! انه يهدد بحرق بيتي ! قال ذلك بحضور شهود استدعي جبريل ، وسئل : أصحيح انك قلت ذلك ؟

— لم أقل أي شيء • اجلدوني ، مادمتم تملكون القوة • يبدو اني الوحيد الذي يتحمل لانني على حق ، بينما يسمح له أن يعمل ما يشاء •

أراد (جبريل) أن يقول اكثر من ذلك ولكن شفتيه وخديه راحت ترتعش فاستدار الى الجدار • وارتعب حتى الموظفون من نظراته • وفكروا : لعله يؤذي نفسه أو جاره •

ثم قال الحاكم العجوز : انظرا اليّ يا سيديّ • خير لكما أن تكونا عاقلين وتتصالحا : أصحيح منك ايها الصديق (جبريل) أنك تضرب حاملاً ؟ لحسن الحظ ان الامر مر بسلام ولكي تفكر ماذا يحتمل أن يحدث ! اهذا صحيح ؟ خير لك أن تعترف وتطلب العفو ، وسيعفو عنك وسيبدل الحكم •

سمع الكاتب هذه الكلمات فعلق قائلا : هذا مستحيل على حسب القانون ١١٧ ، اذ لم يتم اتفاق الطرفين ، فصدر قرار المحكمة ويجب تنفيذه •

ولكن الحاكم لم يستمع الى الكاتب .

فقال : اسكت ياصديقي . أول القوانين طاعة الله الذي يحب السلم .

ثم راح الحاكم مرة اخرى يقنع الفلاحين على الصلح ولكنه لم يفلح . لان جبريل لم يستمع اليه .

وقال : سابلغ الخمسين في السنة القادمة ، وعندي ولد متزوج ، ولم أجلد في حياتي . والان (ايفان) المجدور يحكم علي بالجلد ، فهل اذهب واطلب عفوه ؟ كلا ، لقد تحملت كثيرا ... سيجد ايفان مبررا لكي يتذكرني !

وعاد صوت جبريل يرتعش ولم يستطع أن يقول شيئا اخر ، بل استدار وخرج .

كانت المسافة سبعة اميال بين المحكمة والقرية وكان الوقت متأخراً عندما وصل (ايفان) الى بيته . نزع العدة عن الحصان ، وربطه ودخل الكوخ . لم يكن أحد فيه . فقد ذهبت النساء لحلب الماشية ولم يعد الشباب من الحقل . دخل ايفان وجلس وراح يفكر . تذكر كيف أصغى جبريل الى الحكم وكيف شحب لونه وكيف استدار الى الجدار ؟ فانقبض صدر ايفان . وفكر في نفسه كيف يشعر لو انه حكم عليه ، فاشفق على جبريل. ثم سمع أباه الشيخ على التنور يسعل ورآه يجلس ويمد ساقيه وينزل . وسحب الرجل نفسه وئيداً الى مقعد وجلس . كان متعبا من الاجهاد وسعل طويلا حتى نظف حنجرته ، ثم استند الى المنضدة وقال : حسنا ، هل حكم عليه ؟

أجاب ايفان : نعم ، بعشرين جلدة بالعصا .

هز الشيخ رأسه وقال : عمل سيء . انك تقوم بعمل خاطيء يا ايفان . نعم انه عمل سيء غاية السوء — ليس عليه بمقدار ماعليك ! .. حسنا ، سيجلدونه ، ولكن هل ينفعط ذلك شيئا ؟

فقال ايفان : لن يفعل ذلك ثانية .

فسأل الاب : ما الذي لن يفعله ثانية ؟ ماذا فعل أسوأ مما فعلت أنت ؟

قال ايفان : فكر بالضرر الذي أصابني به ! كاد يقتل زوجتي والان يهدد بحرقنا . هل أشكره على ذلك ؟

تنهد الشيخ وقال : أنت تخرج الى الدنيا الواسعة يا ايفان في الوقت الذي ارقد على التنور كل هذه السنين ، فتظن انك ترى كل شيء وانا لا ارى شيئا ... آه ، يا ولدي ! أنت الذي لا ترى ، فقد أعماك الحقد . آثام غيرك أمام عينيك ولكن آثامك وراء ظهرك . « تصرف بسوء ! » أي شيء تقول ! لو كان الشخص الوحيد الذي يفعل السوء فلماذا يوجد النزاع ؟ هل نشأ النزاع بين الناس من طرف واحد فقط ؟ النزاع دائما بين اثنين . أنت ترى سوءه ولكنك لا ترى سوءك . لو كان شيئا وأنت طيب فلن يكون نزاع . من الذي انتزع الشعر من لحيته ؟ ومن الذي اتلف تبنه ؟ ومن الذي جرجره الى المحكمة ؟ ومع ذلك كله تضع اللوم كله عليه ! أنت تعيش عيشة سيئة ، وهذا هو الخطأ ! لم أعتد أن اعيش بهذه الطريقة ، وليست هذه هي الطريقة التي علمتك . أهذه هي الطريقة التي اعتاد ابوه واعتدت انا ان نعيش بها ؟ كيف

عشنا ؟ كما ينبغي لجارين ! لو حدث أن نفد طحينهم ، أتت احدى النساء وقالت : « عمي ، نريد شيئا من طحين » فاقول : « اذهبي يا عزيزتي الى المخزن وخذي ماتحتاجين ». واذا لم يكن عندهم أحد يأخذ الخيل الى المرعى اقول «يا ايفان اذهب وارع خيولهم». واذا احتجت أي شيء ، ذهبت اليه وقلت : يا عمي اريد كـذا وكذا . فيقول : خذه يا عمي ! » هكذا كانت الامور بيننا ، وكان كل شيء هنياً والزمان سهلا . ولكن الان ؟ ... تحدث الينا ذلك الجندي يوما عن الحرب في يليفنا . الحرب بيننا اسوأ من الحرب في بليفنا . أهذه عيشة ؟ ياله من اثم ! انت رجل ورب البيت ، وعليك أن تجيب . ماذا تعلم النســاء والاطفــال ؟ التشــابك والعض ؟ كان في احد الايام اخوك (تاراسكا) ذلك الولد الغر ، القليل الخبر « يقذع » جارتنا أرينا ، ويشتمها ، وامه تسمــع وتضحك . أهذا صحيح ؟ انت الذي يجب ان تجيــب . فكر بنفسك . اهكذا يجب ان تكون الامــور ؟ انــت تقذفنــي كلمة ، وانا اعيدها لك اثنتين . وانت تضربني واردها لك ضربتين كلا ، يا ولدي ! اونا الله بشيء غير هذا . اذا سمعت كلمة جارحة، اسكت .وسيوبخه ضميره . علينا ان نتسامح ولا نمشي في الارض مرحا وتكبرا ! ... لمــاذا لا تجيب ؟ اليس الامر كما اقول ؟

جلس ايفان صامتا يستمع .

سعل الشيخ حتى صفت حنجرته بعد صعوبة . وعاد يقول: في هذا كل الخير لنا . فكر في حياتك ، هل انت في حال احسن ام اسوأ منذ ان نشبت الحرب بينكم ؟ قدر ما انفقت علــى مراجعــة

المحاكم ــ كم كلفك الذهاب والاياب وطعام الطريق ! ما اروع مـــا شب اولادك ! عليك ان تعيش وتحسن احوالك ، ولكن وسائلك في تدهور • لمـــاذا ؟ كل ذلك بسبب هذه الحماقة ، وبسبب تعجرفك • ينبغي ان تنصرف الى الحراثة مع ابنائك وتقوم بالبذار انت نفسك ولكن الشيطان اغواك فحملك الى المحاكم والمحامين وغيرهـــم • وتركت الحراثة في حينها وكذلك البذار فلم تستطع الارض الام ان تنجب ما هو مناسب • لمـــاذا خاب الشوفان هذا العام ؟ متى بذرته؟ عندما رجعت من المدينة ! وماذا كسبت ؟ عبئا على كاهلك ••• ايه يا ولدي ، فكر بشؤونك الخاصة ! واعمل مع اولادك في الحقل وفي البيت واذا ما أغاظك احد فاغفر له وتسامح ، عندئذ ستكون الحياة سهلة وقلبك مبتهجـــا •

ظل ايفان صامتا •

فقال الاب : يا ولدي ايفان ، اسمع اباك الشيخ ! اذهـــب واسرج حصانك وتوجه فورا الى دار الحكومة وضع نهاية لكـــل هذا الامر البغيض ، ثم اذهب في الصباح وتصالح مع جبريل حبـــا لله ، وادعه الى بيتك ، فان يوم غد عيد ، وقدم له الشاي والطعام • وليكن ذلك نهاية لهذه القضية الشريرة ، لئلا يتكرر شيء منها في المستقبل ، وخبر النساء والاطفال ان يحذوا حذوك •

تنهد (ايفان) وفكر : « ما يقوله صحيح » وابتهج قلبه • غير انه لم يكن يعرف كيف يبدأ باصلاح ذات البين •

ولكن الشيخ عاد الى الحديث كأنه خمن ما كان يدور في خلد ايفـــان •

فقال : هيا يا ايفان ، لا تؤجل ذلك • اطفىء النار قبل انتشارها والا فـات الاوان •

واراد الشيخ ان يقول اكثر من هذا ، عني انه قبل ان يفعـل ذلك دخلت النساء يثرثرن كأنهن طيور العقعق • وقد بلغهن نبأ الحكم على (جبريل) بالجلد وتهديده بحرق الدار ، اسمعن ذلك كله واضفن اليه من عندهن شيئا • وتشاجرن مرة اخرى في المرعى مع نساء بيت جبريل • بدأن بسرد شجار جديد هددت به كنة جبريل وان (جبريل) قد استحال جانب المحقق الذي سيقلب الامر رأسا على عقب ، وان معلم المدرسة كتب عريضة اخرى الى القيصر نفسه هذه المرة عن ايفان ــ ذكر كل شيء في العريضة ــ عن رابط العجلة وحديقة المطبخ ــ بحيث سيكون نصف منزل ايفان لهـم قريبا • سمع (ايفان) ما قالت النساء فخلا قلبه من العطف وتخلى عن فكرة الصلح مع جبريل •

وكان في المزرعة امام ايفان عمل كثير • فلم يتوقف للحديث مع النساء ، ولكنه خرج الى البيدر والى مخزن الحبوب ، ورتب كل شيء ونظمه حتى غروب الشمس ، وعاد الصغار من الحقل حيث كانوا يحرثون لزراعة المحاصيل الشتوية على حصانين • التقى ايفان بهم وسألهم عن عملهم ، وساعدهم في ترتيب كل شيء ، ونزع طوق حصان ممزق لكي يصلح • وكان يوشك ان يضع بعض الاخشاب في المخزن ولكن الظلام حل فقرر تركها في مكانها الى يوم غـد • وقـدم العلف للحيوانات وفتح الباب واخـرج الخيـول التـي سيأخذها (نتاراس) الى المرعى ليلا ، ثم سد الباب وزلجه • وفكر

في نفسه : « الآن ساتناول عشائي وانام » • ثم اخذ طوق الحصان ودخل البيت • وكان قد نسى كل شيء عن جبريل وكل ما قال له أبوه الشيخ • وما ان امسك بمقبض الباب ليدخل المجاز حتى سمع جاره وراء السياج يسب شخصا بصوت أجش • قال جبريل : «لاي شيء يصلح ؟ انه لا يصلح الا للقتل » ! وثارت الضغينة القديمة على جاره لدى سماعه تلك الكلمات ووقف يستمع الى جبريل يسب وعندما انهى دخل البيت •

كان النور مضاء في الكوخ وكنته تغزل وزوجته تعد العشاء وابنه الاكبر يقص سيورا من لحاء الشجر لصنع حذاء ، وجلس الثاني قرب المنضدة وبيده كتاب ، اما (ثاراس) فقد كان متأهبا للخروج ليرعى الخيول في الليل ، كان كل شيء في الكوخ بهيجا ، نيرا لولا ذلك الطاعون ـــ جار السوء !

دخل (ايفان) متجهما ، حزينا ، والقى القطة بعيدا عن المصطبة ووبخ النساء على وضع سطلة النفايات في غير محلها • شعر بالكآبة فجلس مقطبا ليصلح طوق الحصان • وظلت كلمات جبريل ترن في اذنيه : التهديد في المحكمة ، وما سمعه توا يهتف به بصوت اجش بخصوص شخص « لا يستحق الا القتل » •

قدمت الام الطعام الى ابنها (ثاراس) الذي تناوله ، ثم لبس فراء غنم قديم ووضع عليه معطفا ، ثم شد الحزام على خصره ، واخذ قليلا •• من الخبز معه ، وخرج الى الخيل • ونهض اخوه الاكبر ليودعه ولكن (ايفان) نفسه نهض بدلا منه وخرج الى الرواق • اشتد الظلام في الخارج وتكبدت الغيوم وهبت الرياح •

نزل (ايفان) الدرجات وساعد انصبي في ركوب الحصان واطلق مهرا وراءه ، ووقف يستمع الى تاراس يمر خلال القرية وقد التحق به خارجها صبية آخرون مع خيولهم • انتظر (ايفان) حتى ابتعدوا عن الاسماع • ولما وقف لدى الباب لم يكن بوسعه ابعاد كلمات (جبريل) من راسه : ولكن تذكر ان شيئا من اشيائك سوف يلتهب اسوأ من ذلك •

فكر ايفان : « انه متهور • كل شيء يابس والجو ذو رياح • سيخرج على حين غيرة من خلف الدار ، ويشعل النار ويهرب ، سيحرقه المكان وينجو النذل ! ••• لو يستطيع المرء ان يمسك به متلبسا ، فلن يهرب عندئذ » ! وتشبثت الفكرة في فكره ، فلم يصعد الدرجات الى البيت بل خرج الى الشارع ودار حول المنعطف • « سادور حول المباني • فمن يعلم ماذا ينوي » ؟ وخطا ايفان خفيفا ودلف من الباب الخارجي • وما ان وصل المنعطف حتى نظر الى السياج فرأى شيئا يتحرك بغتة في المنعطف المقابل ، كأن شخصا خرج ثم اختفى ثانية • توقف (ايفان) وبقي هادئا يصغي وينظر • كان كل شيء ساكنا ما عدا اوراق الصفصاف الذي يرفرف خافقا في مهب الريح وحفيف القش في سقف الكوخ • كان الظلام في البدء دامسا ثم اعتادت عيناه الظلام فاستطاع ان يرى المنعطف البعيد ومحراثا ملقى هنالك نظر برهة ولكنه لم ير احدا •

وفكر ايفان : اظن انه اشتباه • ولكني سادور حول المنعطف •

وسار ايفان خلسة بجانب الحظيرة • وسار خفيفا بحذائه الذي من اللحاء حتى انه لم يسمع خطواته • ولما وصل الى المنعطف البعيد

بدا شيء باهـــر للعيـــان لحظة قرب المحراث ثم اختفى ثانية • شعر ايفان كأنه ضرب حتى القلب ، فتوقف • وما كاد يقف حتى تألـــق شيء اكثر من ذي قبل في المكان نفسه فرأى بوضوح رجلا ، يعتمر قبعة على رأسه ، منحنيا وظهره اليه ، يشعل حزمة من قش يحملهـــا بيده • خفق قلب ايفان في صدره كما يخفق الطائر • وتوتـــرت اعصابه جميعا وتقدم بخطى واسعة ولا يكاد يحس برجليه تحته • وفكر في نفسه : لن يهرب الآن ! سألقي القبض عليه متلبسا !

كان ايفان ما يزال بعيدا عندما راى ضوء باهرا ولكن ليس في المكان السابق نفسه ، ولم يكن اللهب صغيرا • فقد اشتعـــل السقف عند الافريز وارتفعت النار حتى القمة ، وكان (جبريل) واقفا تحتها فظهر شبحه جليا للعيان •

وانقض ايفان على جبريل كما ينقض الصقر على قبرة • وهو يفكر : « سأناله الآن • لن يهرب مني » ! ولكن (جبريل) سمع وقع خطاه ولمحه فصار يعدو كالأرنب مارا بمخزن الحبوب •

صاح ايفان : « لن تهرب » ! وانقض خلفه •

واوشك ايفان ان يمسك به ولكن جبريل راوغه ، غير ان ايفان استطاع ان يمسك باذيال معطفه الذي تمزق بيده وسقط ايفـــان ثم نهض وهو يصيح : « النجدة ! امسكوا به ! لص ! قاتل » ! واستمر يركض ، ولكن جبريل وصل الى باب بيته الخارجي حيث لحق به ايفان وقد اوشك ان يمسك به ، ولكن ضربة ، كأنها صخرة اصابت صدغه ، افقدته الوعي فسقط لا يسمع شيئا • انه جبريـــل، الذي كان يمسك بوتد من خشب البلوط كان ملقى قرب الباب ،

ضربه بكل قوته • صق (ايڤان) اذ طارت شرارات امام عينيه وصار كل شيء مظلما وترنح ، ولما أفاق الى وعيه لم يكن جبريل موجودا• وكان الضوء قد انتشر كأنه النهار ، وزأر شيء من جانب بيته وتقصف كأنه ماكنة تشتغل ، استدار ايڤان ورأى ان حظيرته الخلفية كانت متأججة وان الحظيرة الجانبية اشتعلت فيها النيران واختلط اللهب والدخان وقطع من القش المحترق وساقته الريح نحو كوخه•

فصرخ ايڤان : « ما هذا يا اصدقاء » ؟ ••• ويرفع ذراعيه ويضرب فخذيه ، ثم يكرر قوله « كل ما كان عليّ عمله ان اخطف النار من السقف واسحقها ما هذا ياناس » ؟

صوته • واراد ان يركض ولكن لم تطاوعه ساقاه وصارت كل واحدة تضرب الاخرى • فتحرك بطيئا وترنح مرة اخرى وانقطعت انفاسه ثانية • فوقف ساكنا حتى استعاد انفاسه ثم واصل سيره • وقبل ان يدور حول الحظيرة الخلفية • لكي يصل النار كانت الحظيرة الجانبية قد ارتفعت فيها السنة اللهب • وطالت النيران ركن الكوخ والمدخل المسقف ايضا • وكان اللهب يتواثب من الكوخ ومن المستحيل الدخول الى الحوش • تجمهر حشد كبير ولم يستطيعوا عمل شيء • وكان الجيران ينقلون اشياءهم من بيوتهم ويسوقون الماشية من حظائرها • ثم انتقلت النار من بيت (ايڤان) الى بيت جبريل • ونشرت الريح العالية اللهب الى الجانب الاخر من الشارع فاحترق نصف القرية •

وفي بيت (ايڤان) لم يستطيعوا الا انقاذ ابيه الشيخ ونجت العائلة بما عليها ، وضاع كل شيء غير ذلك ما عدا الخيل التي

اخرجت للرعي ليلا • فقد احترقت الماشية والدجاج على مجاثمه والعربات والمحاريث والمساحي وصناديق النساء بملابسهن والحبوب في المستودعات •

اما في بيت (جبريل) فان الماشية اخرجت وانقذت اشياء قليلة منه •

استمرت النار طوال الليل • ووقف (ايفان) امام منزله وهو يردد : « ما هذا ؟ •• يا اصدقاء ؟ ••• لم يكن على المرء سوى سحبها وسحقها بقدمه » ! وعندما انهار السقف اندفع ايفان الى المكان المحترق وامسك بعمود متفحم وحاول ان يسحبه الى الخارج، رأته النساء وناديته ان يعود • ولكنه اخرج العمود، ثم عاد ليسحب آخر ولكن قدمه زلت فسقط بين اللهب • فاندفع ابنه نحوه وجره الى الخارج • وشاط شعر رأسه ولحيته واحترقت ملابسه وأحترقت يداه ولكنه لم يشعر بشيء • وقال الناس : « خدره الهم » • وظلت النار تحترق وايفان واقف يردد : يا اصدقاء ••• ما هذا ؟ ••• لم يكن على المرء سوى سحبها وسحقها !

وجاء في الصباح ابن كبير القرية يبحث عن ايفان • عمي ايفان، ابوك يحتضر ! ارسل في طلبك لوداعه !

نسي (ايفان) أباه ولم يفهم ما قيل له •

فقال : أي أب ؟ ولمن أرسل ؟

ـــ ارسل اليك ليودعك • انه يموت في بيتنا • ! هيا معي يا عمي ايفان •

واقتاده ابن كبير القرية من ذراعه وتبع ايفان الصبي عندما أخرج الشيخ من الكوخ سقط بعض القش المحترق عليه وحرقه ،

فأخذوه الى بيت كبير القرية في الطرف البعيد منها الذي لم تصله النيران .

وعندما جاء ايڤان الى أبيه ، لم يكن في الكوخ سوى زوجة كبير القرية مع بعض الاطفال فوق التنور . وكان الباقون جميعا عند الحريق . وكان الشيخ المستلقي على المصطبة وبيده شمعة الاحتضار يدير عينيه نحو الباب . وعندما دخل ابنه ، تحرك قليلا . فذهبت العجوز اليه وقالت له ان ابنه جاء . وطلب ان يحضر اليه . اقترب ايڤان منه فقال الشيخ : ماذا قلت لك يا ايڤان ؟ من الذي احرق القرية ؟

اجاب ايڤان : هو الذي احرقها يا ابي . قبضت عليه متلبسا . رأيته يلقي النار على قش السقف . كان من الممكن سحب القش المحترق وسحقه ولن يحدث شيء .

فقال الشيخ : ايڤان اني اموت وانت ايضا ستموت في حينك . من الآثم ؟

حدق (ايڤان) بأبيه صامتا ، غير قادر ان يتفوه بكلمة .

— قل الآن ، امام الله ، من هو الآثم . ماذا قلت لك ؟ عند ذلك أفاق ايڤان الى نفسه وفهم كل شيء . وابتسم وقال : انا يا والدي !

وجثا على ركبتيه امام والده وقال : اغفر لي يا والدي انا مذنب امامك وامام الله .

حرك الشيخ يديه وحول الشمعة من اليد اليمنى الى اليد اليسرى وحاول ان يرفع يده اليمنى ليدعو ربه ولكن لم يستطع فتوقف .

وقال : الحمد لله ! الحمد لله !

ثم ادار عينيه نحو ولده وقال :

ـ ايقان ! اقول ، ايقان !

ـ ماذا ياوالدي ؟

ـ ماذا عليك ان تفعل الان ؟

بكى ايقان وقال : لا أدري يا ابي كيف نعيش الان ؟ اغمض الشيخ عينيه وحرك شفتيه كأنه يستجمع قوتـه ، ثم فتح عينيه وقال : تستطيع ان تعيش اذا امنت بارادة الله ، تستطيع ! توقف قليلا ثم ابتسم وقال : انتبه يا ايقان ! لاتقل من اشعل الحريق ! استر ذنب انسان ، يغفر الله لك ذنبين !

ثم امسك الشيخ بالشمعة بكلتا يديه وضمها الى صدره وتنهد وتمدد ثم مات .

لم يقل (ايقان) شيئا ضـد جبريل ولم يعرف احد سبب الحريق . وزال غضب (ايقان) على جبريل . وتعجب (جبريل) لماذا لم يخبر ايقان احدا . شعر جبريل بالخوف باديء ذي بدء ولكنه اعتاد ذلك بعد مدة . وترك الرجلان الخصـام وتركتـه عائلتاهما . وسكنت العائلتان في بيت واحد في اثناء اعادة بنـاء كوخيهما . وعندما اعيد بناء القرية كان من المتوقع ان يبتعـد الاثنان بعضهما عن بعض ولكنهما اعادا البناء متجاورين وبقيـا على سابق عهدهما .

وعاش الاثنان كما ينبغي ان يعيش الجيران . وتذكر ايقان ابيه عن طاعة امر الله ، واطفاء الحريق منذ الشرارة الاولى . وعدم

الانتقام اذا ما أساء أحد اليه ، بل عليه اصلاح ذات البين ، واذا سبه احد فعليه ألا يسبه بأسوأ منه بل يحاول ان يعلمه عدم استعمال كلمات السوء ، ويعلم نساءه وأطفاله كذلك . ووقف ايقان على قدميه مرة اخرى . وهو يعيش الان عيشة افضل من ذي قبل .

سنة ١٨٨٥ م

الشيخان

كان في قديم الزمان شيخان ، عقدا العزم على الحج الى بيت المقدس .كان احدهما فلاحا ثريا ، اسمه (ايفيم تارا سيج شيفيليف) . والاخر اسمه (اليشا بوردوف) . ولم يكن ثريا . كان (ايفيم) رزينا ، وقورا ، راسخ الايمان . لم يشرب ولم يدخن ولم يتنشق السعوط ، ولم يستعمل لغة بذيئة في حياته قط . اشغل منصب كبير القرية مرتين . وكانت اوضاعه في حالة جيدة عندما ترك الوظيفة . وكانت عائلته كبيرة تتكون من ولدين وحفيد متزوج ، يعيشون كلهم معه . كان سليما ، معافى ، طويل اللحية ، منتصب القامة ، ولم يظهر الا شيب قليل في لحيته بعد ان جاوز الستين من العمر .

أما (اليشا) فلم يكن ثريا ولا فقيرا . كان في مامضى يعمل في النجارة ، غير انه وقد بلغ الان من العمر عتيا ، فقد لازم بيته وراح يربي النحل . ورحل احد اولاده بحثا عن العمل ، ومكث الاخر في البيت . كان (اليشا) شيخا ودودا ، مرحا . وكان

يشرب في بعض الاحياز ، ويستنشق السعوط ، وكان مغرما بالغناء ، بيد انه كان رجلا مسالما ، يعيش على وفاق مع عائلته وجيرانه • كان قصيرا ، داكن البشرة ، جعد اللحية ، اصلع •

نذر الشيخان منذ مدة طويلة واتفقا ان يحجا الى بيت المقدس معا • ولكن (ايقيم) لم يستطع ان يجد متسعا من الوقت ، فهو دائم الانشغال باعمال كثيرة ، فما يكاد ينهي عملا حتى يبدأ بعمل اخر • كان عليه اولا ان يرتب امر زواج حفيده ، ثم ينتظر عودة ابنه الاصغر من الجيش ، ثم شرع بعد ذلك ببناء كوخ جديد •

والتقى الشيخان ذات عطلة لدى الكوخ ، وجلسا على بعض الاخشاب الكبيرة وراحا يتحدثان •

وسأل (اليشا) صاحبه : ومتى سنفي بنذرنا ؟

وأشاح (ايقيم) بوجهه استياء وقال : لابد ان ننتظر ، فقد كانت هذه السنة سنة عسيرة علي • وقد بدأت ببناء هذا الكوخ وكنت اظن انه سيكلفني شيئا قليلا فوق مئة روبل ولكن بلغ ثلاث مئة روبل ولم يكتمل بعد • فلابد ان ننتظر حتى الصيف • وفي الصيف سوف نذهب بمشيئة الله •

فقال اليشا : يبدو لي اننا يجب الا نؤجل ذلك بل نذهب الان لان الربيع انسب الاوقات •

— الوقت مناسب ، ولكن ماذا بشأن بناء كوخي ؟ فكيف اترك ذلك ؟

— كأنك لاتجد احدا يكون مسؤولا عنه ! يمكن لابنك ان يهتم بذلك •

ـ ولكن كيف ؟ ولدي الاكبر غير جدير بالثقة ـ فهو احيانا يتناول كأسا زيادة على مايلزم .

ـ آه ، ياجاري ، انهم سيواصلون حياتهم من غيرنا بعد موتنا . فدع ابنك من الان يدخل التجربة .

ـ هذا شيء صحيح ولكن عندما يبدأ الانسان شيئا فانه يجب ان يراه مكتملا .

ايه يا صديقي ، اننا لا نستطيع ان نكمل كل ما نريده عمله . فقد قامت النساء في بيتنا يوما بالغسل وتنظيف البيت استعدادا لعيد الفصح . هنا شيء يحتاج الى عمل ، وهناك شيء اخر ، ولم يستطعن انجاز كل شيء . وقد قالت زوجة ابني الاكبر وكانت امرأة مدركة متعلقة : يجب ان نحمد الله ان العيد سيأتي من دون ان ينتظرنا ، واننا مهما اجهدنا انفسنا بالعمل فلن نكون متأهبين له ابدا .

وفكر ايقيم في نفسه :

ان يقوم برحلة وهو خالي الوفاض . فيحتاج كل واحد منا مئة روبل ـ وليس هذا مبلغا ضئيلا .

ضحك اليشار

وقال : تعال يا صديقي تعال : انت تملك عشرة اضعاف ما املك، ومع هذا تشكو من قلة المال . قل لي متى نبدأ ، وعلى الرغم من انني لا املك الان شيئا فانني سأجمع مايكفي عندئذ .

وضحك ايقيم ايضا .

وقال : يالدهشتي ، لم اكن اعرف انك ثري الى هذا الحد ! من اين تحصل على المبلغ ؟

اجاب اليشا قائلا : استطيع ان اجمع شيئا بجهد من اهل بيتي وان لم يكف ذلك سابيع عسر خلايا من النحل الى جري وهو راغب في شرائها منذ زمن طويل •

— ستندم اذا درت كنيرا هذه السنة •

— اندم ! لا يا جاري ! انا لم اندم في حياتي على شيء قط عداخطاياي • فلا شيء اغلى من الروح •

— هذا صحيح ، ولكن لايجوز اهمال امور البيت •

— ولكن ماذا لو أهملنا ارواحنا ؟ ذلك اسوأ • لقد نذرنا ، فدعنا نذهب ! اقول بجد ، دعنا نذهب !

(٢)

أفلح (اليشا) في اقناع صاحبه • وقد جاء (ايفيم) الى (اليشا) في الصباح بعد ان فكر في الامر مليا •

وقال : انت على حق • لنذهب ، لان الحياه والموت في يدي الله • علينا ان نذهب الان مادمنا احياء ولدينا القوة •

تأهب الشيخان بعد اسبوع للرحيل • فقد كان (ايفيم) يملك مالا كافيا اخذ منه لنفسه مئة روبل وابقى مئتين لدى زوجته •

وتأهب (اليشا) ايضا ، فقد باع عشر خلايا الى جاره من التي تنتج اسرابا جديدة قبل الصيف • تقاضى سبعين روبلا عنها ، إما بقية المئة فقد جمعها من اهل بيته ، وقد جردهم من كل شيء • فأعطته زوجته ما ادخرته لماتمها ، واعطته كنته كل ما تملك •

ووجه (ايقيم) اوامره الدقيقة الى ابنه الاكبر بخصوص كل شيء : متى يقص العشب وكيف ، واين يحمل السماد بالعربة ، وكيف يتم البناء ويسقف الكوخ • فكر بكل شيء واصدر اوامره على وفق ذلك • اما (اليشا) فانه لم يطلب من زوجته الا عزل اسراب النحل من الخلايا التي باعها لكي يحصل عليها جاره من دون أي احتيال • اما شؤون البيت فلم يتطرق اليها •

وقال : انكم سترون مايجب عمله وكيفية تدبيره كلما دعت الحاجة • انتم ارباب البيت وستعرفون كيف تدبرون ما فيه الخير لكم •

وهكذا تأهب الشيخان • وخبز لهما اهلهما كعكا • وصنعوا لهما كيسين ، وقصوا لفائف من الكتان للسيقان (بدل الجواريب)• ولبسا احذية من الجلد جديدة ، واخذا معهما احذية من لحاء الشجر احتياطا • واصطحبتهما عائلتاهما حتى طرف القرية ثم استأذناهما وبدأ الشيخان رحلة الحج •

غادر (اليشا) البيت بهيجا ، وما كاد يخرج من القرية حتى نسي شؤون بيته جميعا • وكان همه الوحيد كيفية بعث السرور في نفس صاحبه وكيفية تجنب توجيه كلمة نظة الى أي انسان ، وكيفية الوصول الى المكان المقصود والعودة الى البيت بسلام ومحبة • وكان (اليشا) يتلو وهو يمشي في الطريق بعض التراتيل، او يردد في فكره شيئا من حياة الاولياء بقدر مايستطيع ان يتذكر• وكان كلما قابل احدا في الطريق أو توجه الى مكان لقضاء الليل، حاول ان يتصرف بلطف قدر الامكان ويقول قولا ورعا • وهكذا

واصل رحلته مبتهجا . ولكنه لم يستطع ان يكف عن شيء واحد فقط الا وهو تعاطي السعوط وعلى الرغم من انه ترك علبه السعوط في البيت ، الا انه تاق اليه توقا شديدا ، ثم صادف رجلا في الطريق اعطاه شيئا من السعوط ، وصار يتلكأ في مشيه لئلا يغري صاحبه ، ويتناول قبضة من السعوط .

وسار (ايفيم) سيرا حسنا ، ثابتا . لم يقترف اثما ولم يقل قولا عبثا ، ولكن قلبه لم يكن خاليا من الهموم ، هموم البيت التي اثقلت فكره . ظل قلقا بشأن ما كان يجري في بيته . الم ينس توجيه ولده بكذا وكذا ؟ هل يؤدي ولده تلك الامور اداء حسنا ؟ واذا صادف بطاطة تزرع او سمادا ينقل بعربة وهو سائر في الطريق ، كان يتساءل في نفسه هل يقوم ابنه بالعمل كما قيل له ؟ ويكاد يرجع ليبين له كيف يؤدي الاشياء ، أو انه يقوم بها هو نفسه .

(٣)

واصل الشيخان سيرهما خمسة اسابيع ، وبليت احذيتهما المصنوعة محليا من لحاء الشجر . وكان عليهما شراء احذية جديدة حين وصولهما روسيا الصغرى (هي اوكرانيا اليوم) . كان الاثنان يدفعان نفقات الاكل والمبيت . منذ ان غادرا البيت ، غير انهما عندما وصلا روسيا الصغرى الفيا الناس يتنافسون في دعوتهما الى اكواخهم . فكانوا يأخذونهما ويقدمون الطعام لهما

بلا مقابل • وكانوا ، فضلا عن ذلك ، يضعون الخبز وحتى الكعك في كيسيها متاعا لهما في الطريق •

قطع الشيخان نحو خمس مئة ميل على هذا النحو دونما تكاليف ، ولكن بعد اجتيازهما الاقليم التالي ، وصلا الى منطقة اجدبت ارضها فلم تغل حصادا • ومع ذلك فان الفلاحين لم يتقاضوا عن مبيتهما اجرا ولكنهم لم يعودوا يقدمون لهما الطعام مجانا • وباتا احيانا لا يستطيعان الحصول حتى على شيء من الخبز • يدفعان المال ولكن لا يجدان شيئا • قال الناس : امحلت في السنة الماضية ولم يغل الحصاد شيئا • وألم الخراب بالاثرياء فاضطروا الى بيع كل ما يمتلكون ، اما اوساط الناس فقد صاروا في فقر مدقع ، وراح الفقراء ممن لم يهجروا تلك الاصقاع يتجولون مستجدين يهلكون جوعا في بيوتهم من شدة العوز واضطروا في الشتاء الى اكل القشور واعشاب الارض •

توقف الشيخان ذات ليلة في قرية صغيرة ، واشتريا مقدارا لا بأس به من الخبز وباتا ليلتهما فيها وخرجا قبل شروق الشمس ليقطعا مسافة جيدة قبل اشتداد حر النهار • وبعد ان سارا الشيخان نحو ثمانية اميال وصلا ساقية ، وجلسا ثم ملأ احدهما وعاءا بالماء ، ونقعا شيئا من الخبز فيه وأكلاه • وبدلا لفائف السيقان وارتاحا قليلا • واخرج (اليشا) علبة السعوط فهز ايفيم رأسه استنكارا •

وقال : ألا تترك هذه العادة الذميمة ؟

فقال اليشا ملوحاً بيده : هذه العادة البغيضة اقوى مني •

ونهض الاثنان على الفور وواصلا المسير • وبعد ان قطعا نحو ثمانية اميال اخرى ، وصلا قرية كبيرة ودخلاها وكان الحر

شديدا ، وقد انهك التعب (اليشا) وأراد أن يرتـاح ويشـرب قليلا من الماء ولكن (ايفيم) لم يتوقف وكان ماشيا ممتازا لـم يستطع (اليشا) أن يجاريه في مشيه .

وقال : لو اني استطيع الحصول على شربة ماء .

فقال ايفيم : حسناً ، اشرب أنت . أما أنا فليست بي حاجـة الى الماء . وتوقف اليشا .

وقال اذهب أنت . وسوف اذهب راكضا الى ذلك الكـوخ الصغير . وسألحق بك بعد لحظة .

فقال ايفيم : « حسناً » وواصل السير في الطريق العـام في الوقت الذي اتجه اليشا الى الكوخ .

كان الكوخ صغيرا مطليا بالطين ومبيضا بالجص من الاعلـى وقد تفقع الطين . ويبدو ان الطلاء مضى عليه مـدة طويلة وان سقف القش قد تساقط من أحد الجوانب . وكان الدخول الى الكوخ من الفناء ، فدلف اليشا اليه ورأى شابا هزيلا أمرد وضع القميص داخل سراويله على عادة اهل البلاد وقد اسـتلقى علـى الارض قريبا من دكة تدور حول الكوخ .

لابد أن الرجل استلقى في الظل ولكن الشمس دارت وصارت تشع عليه . وعلى الرغم من انه لم يكن نائما فقد ظل مستلقيا في مكانه . ناداه اليشا وطلب منه جرعة ماء ليشرب ولكن الرجل لم يـرد عليه .

فقال اليشا في نفسه : اما انه مريض او غير ودّي .

ثم توجه الى الباب وسمع طفلا يبكي في الكوخ . وأمسك بالمقبض وهو على هيئة حلقة ودقّ به الباب .

ونادى : « هـَيْ ، يا أهل البيت ! » ولا من مجيب • وعاد يدق بعصاه •

« أيها المؤمنون ! » ولم يتحرك شيء •

« يا عباد الله ! » ولم يرد عليه أحد •

وكان (اليشا) يوشك أن يعود أدراجه حينما خُيّل اليه انه سمع انينا وراء الباب •

« يا ويلتاه ! لابد ان كارثة قد حلت بهؤلاء الناس ! يجب أن القي نظرة » •

ودخل اليشا الكوخ •

أدار (اليشا) المقبض ولم يكن الباب مغلقاً • ففتحه وسار في مجاز ضيق ، وكان الباب الى داخل البيت مفتوحاً ، والى اليسار تنور من الطابوق وقربه منضدة والى جانب المنضدة مصطبة جلست عليها عجوز حاسرة ، لا تلبس الا ثوبا واحدا ، جلست وقد أراحت رأسها على المنضدة ، وجلس قريبا منها صبي ناحل ، شاحب شحوب الشمع • وكان يطلب منها شيئا وهو يشد ردنها ويبكي بكاء مراً • دخل اليشا • وكان هواء الكوخ فاسدا • تلفت حوله فرأى امرأة مستلقية على الارض وراء التنور ، منطرحة وكانت عيناها مغلقتين وحنجرتها تحشرج بانفاسها تارة وتسحبها تارة اخرى وتتقلب من جنب • كانت الريح النتنة تنبعث منها • ومن الجلي انها لم تستطع ان تعمل شيئا لنفسها ولم يزل

أحد أمر احتياجاته شيئا من رعايته • رفعت العجوز رأسها ورآت الغريب •

وقالت : ماذا تريد ؟ ماذا تريد ايها الرجل ؟ نحن لا نملك شيئا • فهم (اليشا) قولها على الرغم من أنها كانت تتكلم بلهجة روسيا الصغرى •

وقال : جئت اريد شربة ماء ، يا أمة الله •

فقالت : ليس لدينا قطرة واحدة ، وليس لدينا شيء نجلب بواسطته الماء • فاذهب في سبيلك •

ثم سألها أليشا : الا يوجد أحد معافى بينكم يُعنى بتلك المرأة ؟ أجابته بقولها : لا ، لا أحدَ لدينا • ابني يحتضر في الخارج ونحن نموت هنا • كفّ الولد الصغير عن البكاء عندما رأى الغريب ولكنه عاود البكاء عندما بدأت العجوز الكلام وراح يشدّ ردنها ويبكي قائلا : خبز ، جدتي ، خبز •

كان (اليشا) يوشك أن يسأل العجوز عندما دخل الرجل الكوخ مترنحاً • جاء مستنداً الى الجدار ، ولما دخل الحجرة تهاوى في الزاوية قرب العتبة من دون أن يحاول النهوض لكي يصل الى المصطبة ، وراح يتكلم بكلمات مكسرة ، ويخرج كلمة واحدة كل مرة ويتوقف ليجر نَفَساً ، ويلهث •

قال الرجل : أصابنا المرض ... والمجاعة • يموت ... من الجوع •

وأشار الى الصبي وراح ينشج •

وهزّ (اليشا) الكيس الذي على ظهره ، وخلع الاربطة عن ذراعيه ووضعه على الارض ، ثم رفعه الى المصطبة وفك الحبال •

وفتح الكيس واخرج رغيفا من الخبز ، وقطع قطعة بسكينه وقدمها الى الرجل • رفض الرجل أخذها واشار الى الصبي الصغير والى الطفلة الصغيرة القابعة وراء التنور كأنه يقول : أعطها لهما •

وقدمها (اليشا) الى الصبي ، وعندما شمَّ الصغير رائحة الخبز مد ذراعيه وأمسك بقطعة الخبز بكلتا يديه وقضمها فاندس انفه في الشريحة السميكة ، وخرجت البنت الصغيرة من وراء التنور وثبتت عينيها على الخبز • فاعطاها (اليشا) شريحة من الخبز أيضا • وقطع شريحة قدمها الى العجوز التي بدأت تمضغها بصوت مسموع •

وقالت : لو أن قليلاً من الماء يمكن جلبه• لقد جفت حلوقهم• حاولت أمسِ أن أجلب شيئا من الماء — بل كان ذلك هذا اليوم — فلم أعد أتذكر ، ولكنني وقعت ولم أستطع المشي أبعد من ذلك ، وظلت الدلو في مكانها ، ما لم يكن احد الناس قد أخذها •

وسأل (اليشا) عن مكان البئر • فدلته العجوز • فخرج اليشا ووجد الدلو وجلب شيئا من الماء وسقاهم منه • وأكل الاطفال والعجوز مزيدا من الخبز مع الماء ، ولكن الرجل رفض أن يأكل •

وقال : لا استطيع الاكل •

ولم يبدُ على الشابة طوال الوقت انها استعادت وعيها • ولكنها ظلت تتقلب من جنب الى جنب • وذهب (اليشا) من فوره الى حانوت القرية واشترى شيئا من الدخن والملح والطحين وازيت • ووجد بلطة ، راح يكسر الحطب بها ، واشعل نارا •

وجاءت الصغيرة تساعده • ثم طبخ شيئا من الحساء وقدمها وجبة الى هؤلاء الناس الذين كادوا يموتون جوعا •

(٥)

احتسى الرجل قليلا منها وتناولت العجوز شيئا أيضا ، ولعق الصبي والصبية الاناء ، ثم تكورا وناما متشابكي الاذرع •

وشرع الشاب والعجوز يحدثان (اليشا) كيف تدهور بهما الوضع الى هذه الحال · كنا فقراء غاية الفقر ، واجدبت الحقول من المحاصيل ، لم يكد ما ادخرناه يكفينا لموسم الخريف ، فلم يبق لدينا شيء عند حلول الشتاء ، فاضطررنا الى الاستجداء من الجيران ومن أي شخص اخر • تكرم الناس علينا باديء ذي بدء ، ثم صاروا يرفضون : وكان بعضهم مسرورا بمد يد المساعدة الينا ، غير انهم لم يكونوا يمتلكون ما يهبون ، فصرنا نخجل من السؤال : غدونا مدينين لكل من كان حولنا بالمال والطحين والخبز •

وقال الرجل : خرجت أبحث عن عمل فلم أجد شيئا • كان الناس في كل مكان يتقدمون للعمل بما يسد رمقهم • قد تجد يوما عملا وتبقى يومين تبحث عن غيره • ثم خرجت العجوز والبنت تشحذان في مناطق بعيدة ، ولم تحصلا الا على النزر اليسير • كان الخبز نادرا • ومع ذلك فاننا كنا نستطيع ان نحصل على الطعام بشق الانفس ، ونحن نأمل ان نقاوم حتى الحصاد القادم ، ولكن الناس كفّوا عن اعطاء أي شيء قبيل الربيع • ثم

أصابنا هذا المرض . وساءت الامور وتدهورت . قد نأكل يوما ، ولا نجد شيئا يومين متتالين . وبدأنا نأكل العشب . ولا أدري هل مرضت زوجتي من العشب ام من غيره . فلم تعد تستطيع الوقوف على رجليها ولم تبق لدي اية قوة ، فلم يكن عندنا شيء يعيننا على استعادة صحتنا .

وقالت العجوز : بقيت وحدي اكافح مدة ولكن قواي انهارت أخيرا بسبب الحاجة الى الطعام ، وأصابني الوهن الشديد . وضعفت البنت وصارت وَجِلة ، تخشى كل شيء . واذا قلت لها اذهبي الى الجيران ، ترفض أن تترك الكوخ وتتسلل الى احدى الزوايا وتقبع فيها . جاءت احدى جاراتنا تزورنا يوم أمس الاول ولكنها عندما رأت اننا مرضى وجائعون ، عادت أدراجها وتركتنا . وتحتم على زوجها أن يرحل ولم تكن تملك شيئا يأكله صغاره . وهكذا بقينا في انتظار الموت .

ولما سمع (اليشا) قصتهم ، تخلى عن فكرة اللحاق برفيقه في ذلك اليوم وأمضى الليل معهم . ونهض في الصباح وصار يقوم بأعمال المنزل كأنه في بيته . وعجن العجين بمعونة العجوز . وأشعل النار . ثم ذهب مع الطفلة الصغيرة الى الجيران للحصول على أشياء ضرورية جدا ، فلم يبق في الكوخ شيء ، اذ أنهم باعوا كل شيء من أجل الخبز كادوات الطبخ والملابس وكل شيء . وهكذا جعل (اليشا) يستعيد كل ما هو ضروري ، ويصنع بعض الاشياء هو نفسه ويشتري اشياء أخرى . ومكث معهم يوما ، وآخر وثالثا . واستعاد الصغير قوته وكان كلما جلس (اليشا) زحف اليه بمحاذاة المصطبة واحتضنه . وأشرق وجه الصبية

وصارت تساعد في كل شيء وتركض وراء اليشا وتناديه : بابا بابا .

واستعادت العجوز قوتها واستطاعت ان تخرج لزيارة الجيران ، وتحسن الرجل وصار بوسعه أن يتنقل بالاستناد الى الجدران ، ماعدا الزوجه فانها لم تستطع النهوض ، ولكنها استعادت وعيها في اليوم الثالث وطلبت طعاماً .

وفكر اليشا : حسنا ، لم أتوقع قط أن اضيع وقتا طويلا في الطريق . عليّ الان ان اواصل المسير .

كان اليوم الرابع يوم العيد بعد صيام الصيف وفكر اليشا : سابقى وافطر مع هؤلاء الناس . سأذهب وابتاع لهم شيئا واقضي العيد معهم ، وأرحل غدا مساءً .

فذهب اليشا الى القرية واشترى حليبا وطحينا وزيتا وساعد العجوز في الطبخ والخبز ليوم غدٍ . وذهب اليشا الى الكنيسة في يوم العيد ثم افطر مع أصدقائه في الكوخ . في ذلك اليوم ، نهضت المرأة واستطاعت ان تتجول في البيت قليلا . وحلق الزوج لحيته ولبس قميصا نظيفا غسلته له العجوز . وذهب يطلب الرحمة من مزارع غني في القرية كان الحقل والمرج مرهونين لديه . ذهب يتوسل الى الغني أن يسمح له باستعمال الحقل والمرج الى مابعد الحصاد . ولكنه عاد في المساء محزوناً وراح يبكي . فلم يُبدِ المزارع الغني شيئا من رحمة بل قال : هاتِ النقود .

راح (اليشا) يفكر مرة اخرى : كيف يعيشون ؟ سيذهب لقص الاعشاب (للعلف) ولكن لن يكون شيء لهؤلاء مايقصونه، فان أرض المرج مرتهنة • وسوف ينضج الشوفان ، وسيحصد الاخرون (ما ستدره الارض من غلة وفيرة هذا العام) ولكنهم لن يجدوا شيئا يتطلعون اليه • وحقلهم مرتهن لدى المزارع الثري • فاذا تركتهم سيعودون الى حالهم التي وجدتهم فيها •

وواتناب (اليشا) شيء من التردد ، غير انه عقد العزم اخيرا على المغادرة في ذلك المساء ، ولكنه سينتظر الى غد ، وخرج الى الفناء لينام • وتلا صلاته واستلقى ، ولكن النوم جفاه • فقد شعر ، من ناحية ، انه يتحتم عليه الرحيل ، لانه أمضى وقتا طويلا وانفق مالاً كثيراً وشعر ، من ناحية اخرى ، بالرثاء لهؤلاء الناس •

وقال : يبدو ان الامر لا نهاية له • فقد أردت في البدء أن أجلب لهم ماء فقط وأعطي كل واحد منهم شريحة من خبز فانظر أين جرى بي الحال لابد أن استرجع المرج والحقل المرهون • واذا ما فعلت ذلك يجب أن اشتري بقرة لهم ، وحصانا لجر عربة تنقل حزم التبن • لقد وضعت نفسك في دوامة رائعة ياأخ اليشا ! لقد افلتت حبالك وضاع حسابك !

نهض (اليشا) ورفع معطفه الذي صار يستعمله وسادة ، ونشره واخرج السعوط وتناول قبضة وقد حسب انه قد يضفي الصفاء على أفكاره •

ولكن لا ! وراح يفكر ويفكر ولم يتوصل الى قرار • لابد أن يرحل ، ومع ذلك فان الشفقة استبقته • ولم يدر ماذا يفعل •

وأعاد طي المعطف ووضعه تحت رأسه مرة اخرى • واستلقى على هذه الشاكلة مدة طويلة حتى صاحت الديكة أول صيحة ثم غلبه النعاس • وبدا على حين غرة كأن شخصا ايقظه ، فرأى نفسه في ثياب السفر والكيس على ظهره والعصا في يده وقد فتح الباب قليلا بحيث يستطيع أن يحشر نفسه ليخرج • وكان يوشك أن يخرج عندما علق كيسه بالسياج من جهة وحاول ان يخلصه ولكن ربطة ساقه علقت بالسياج من جهة اخرى وانحلت • وسحب الكيس فرأى انه لم يعلق بالسياج بل كانت البنت الصغيرة تتمسك به وتبكي وتقول : خبز ، بابا ، خبز !

ونظر الى قدمه فرأى الولد الصغير متشبثا بربطة الساق ، في الوقت الذي كان رب البيت والعجوز ينظران اليه من النافذه •

استيقظ (اليشا) وقال لنفسه بصوت مسموع : غدا سأفك رهن حقلهم واشتري لهم حصانا وطحينا يكفيهم حتى موسم الحصاد وبقرة للصغار ، والا فاني سأخسر ربي في نفسي وأنا ذاهب للبحث عنه في بيته الذي في ماوراء البحار •

ثم استغرق (اليشا) في نومه حتى الصباح • واستيقظ مبكرا • وذهب الى المزارع الثري وفك رهن الحقل والمرج • واشترى منجلا (لان منجلهم بيع أيضا) وجلبه معه • ثم ارسل الرجل ليحش العشب ، أما هو فقد ذهب الى القرية ، لانه سمع أن حصانا وعربة معروضان للبيع في الفندق • وساوم البائع واشتراهما ، ثم اشترى كيس طحين ووضعه في العربة وذهب ليرى في أمر شراء بقرة • وبينما كان سائرا في الطريق لحق امرأتين

تتحدثان وهما سائرتان • وقد فهم ماكانتا تقولان على الرغم من انهما كانتا تتحدثان بلهجة روسيا الصغرى •

« يبدو انهم باديء ذي بدء لم يعرفوه ، وظنوا انه رجل عادي جاء يطلب شربة ماء ثم مكث • فكّر فقط في الاشياء التي اشتراها لهم ! يقولون انه اشترى لهم حصانا وعربة في الخان صباح هذا اليوم » •

وسمع (اليشا) وفهم انهما تمدحانه ولم يذهب لشراء البقرة ولكنه عاد الى الخان واشترى الحصان وشد عليه عدته وساقه الى الكوخ وخرج • ودهش أهل الكوخ عندما رأوا الحصان • وظنوا انه قد يكون من أجلهم ولكنهم لم يجرؤوا أن يسألوا • وخرج لرجل ليفتح الباب •

وسأل : من اين جئت بالحصان ايها الجد ؟

فأجاب اليشا : اشتريته بثمن بخس • اذهب وقص له شيئا من العشب وضعه له في المعلف ليأكل في الليل • وخذ الكيس •

وفك الرجل عدة الحصان وحمل الكيس الى الحظيرة ، ثم حشّ بعض العشب ووضعه في المعلف • واستلقى الجميع ليناموا• وخرج (اليشا) واستلقى على جانب الطريق • وأخرج في تلك اللحظة خرجه معه ، وعندما أغفى الجميع ، نهض ، ورتب الخرج وشده ولف لفائف قماش الكتان حول ساقيه ولبس حذاءه ومعطفه وانطلق ليلحق بايفيم •

سار (اليشا) اكثر من ثلاثة اميـال وبـدأ الصـبح يتنفس والضوء ينتشر • فجلس تحت شجرة وفتح كيسه وعد ماله ووجد انه لم يبق لديه اكثر من سبعة عشر روبلاً وعشرين كوبيكا •

وفكر في نفسه : ليس ثمة أية فائدة من محاولة عبور البحر بمثل هذا القدر من المال • واذا تسوّلت في طريقي فذلك انكى من عدم الذهاب • سيصل صديقي (ايفيم) الى القدس من دوني وسوف يشعل شمعة في المقامات المقدسة باسمي • أما أنا فاني اخشى الا استطيع الوفاء بنذري في حياتي • وعليّ ان اكـون شاكرا اني نذرت [illegible] رب رحيم يغفر ذنوب الآثمين جميعا •

نهض (اليشا) وألقى الخرج على كتفه وعاد ادراجه • ودار دورة كبيرة ليتجنب القرية لئلا يعرفه احد ومشى مسرعا الى بلده• كان الطريق حين بدأ السفر من بلده صعبا وكان عسيرا عليه ان يجاري (ايفيم) في المشي • ولكن ساعده الله في طريق العودة في قطع الطريق و[illegible] بالأعياء • وبدا له المسير كأنه لعب اطفال • وسار وهو يؤرجح هراوته ويقطع اربعين ميلا او خمسين ميلا في اليوم وكان الحصاد قد انتهى لما وصل الى البيت • وفرحت عائلته برؤيته مرة اخرى وأراد الجميع ان يعرفوا ماذا حدث : لماذا وكيف تخلف عن صاحبه ؟ ولماذا عاد من دون ان يصل القدس ؟ ولكن (اليشا) لم يخبرهم بشيء • بل قال : لم تكن ارادة الله ان أصل الى هناك • فقد ضيعت نقودي • وتخلفت عن صاحبي • فاصفحوا

عني اكراما لله ! واعطى (اليشا) زوجته مابقي عنده ، ثم سألهم عن امور البيت • وكان كل شيء قد جرى على مايرام • وقد تم العمل كله ولم يهمل شيء وكان الجميع يعيشون بسلام ووئام •

وسمعت عائلة (ايفيم) بعودته فجاءوا اليه في اليوم نفسه يسألونه عن ابيهم الشيخ واجابهم بما اجاب أهله • وقال : كان (ايفيم) سريع المشي • وافترقنا قبل ثلاثة أيام من عيد القديس بطرس • واردت اللحاق به ولكن حدثت امور كثيرة وانفقت كل مالدي من مال ولم تبق لدي اية وسيلة لمواصلة المسير فعدت ادراجي •

دهش الناس لرؤية رجل عاقل يتصرف تصرفا احمق : فقد بدأ رحلته ولم يبلغ مبتغاه وبدد كل ماله • ولم تدم الدهشة طويلا ونسوا كل شيء عن ذلك • ونسي (اليشا) ذلك ايضا • وشرع يعمل في منزل الاسرة وماحوله من أرض • وراح يقطع الحطب بمعونة ولده وقودا للشتاء • ودرس الحنطة مع النساء • واصلح سقوف مرافق البيت المصنوعة من القش • ووضع النحل تحت غطاء وارجع الى جاره الخلايا العشر التي باعها له في الربيع مع كل الاسراب التي تنجت عنها • وحاولت زوجته الا تخبره عن عدد الخلايا التي تنجت عن هذه الخلايا ولكن (اليشا) عرف أية خلايا انتجت وأيها لم تنتج • فاعاد الى جاره سبع عشرة خلية بدلا من عشر • وبعد ان اعد كل شيء للشتاء ارسل ولده للبحث عن عمل وبقي هو يصنع أحذية من لحاء الشجر ويجوف الخشب ليعد منه خلايا للنحل •

انتظر ايفيم طوال ذلك اليوم زميله اليشا الذي تخلف عنه ومكث لدى الناس المرضى • ولم يسر الا قليلا قبل ان يجلس وراح ينتظر وينتظر وأخذته سنة من النوم ثم استيقظ وطفق ينتظر مرة اخرى • ولكن رفيقه لم يأت • وظل يحملق حتى كلت عيناه • واختفت الشمس وراء شجرة ولم يظهر اليشا للعيان •

وفكر (ايفيم) : لعله اجتازني او لعل احدا اركبه معه ومر بي وانا نائم ولم يرني • ولكن كيف لم يكن بوسعه ان يراني ؟ يمكن للمرء ان يرى بعيدا ههنا في هـذه البرية المترامية • هل اعود ؟افرض انه تقدمني ، فنكون بذلك قد فات احدنا الاخر وسيكون الامر اسوأ من ذي قبل • خير لي ان اواصل مسيري ولابد ان نلتقي حيث نبيت الليل •

وصل (ايفيم) قرية وطلب الى الحارس انه اذا قدم شيخ واعطى له اوصافه ان يأتي به الى الكوخ الذي يبيت فيه • ولكن (اليشا) لم يظهر في تلك الليلة ، فواصل (ايفيم) رحلته سائلا كل من يلقاه هـل رأى شيخا اصلع ضئيلا ؟ ولكـن لم ير احـد مثل هذا المسافر • وتساءل (ايفيم) في نفسه ولكنه واصل السفر وحيدا قائلا :

« لابد ان نلتقي في اوديسا او على ظهر الباخرة » • ولـم يأبه لذلك بعد هذا • وصادف في الطريق حاجا يرتدي غفارة ، أي رداء كاهن ، طويـل الشـعر ، ويعتمر قلنسوة كالتي يلبسهـا القساوسة • كان هذا الحاج قد زار جبل اثوس وهو الان في

طريقه الى القدس مرة ثانية • امضى الاثنان ليلتهما في مكان واحد واستأنفا السفر معا بعد لقائهما ذلك • وصلا اوديسا سالمين • وكان عليهما الانتظار ثلاثة ايام بغية وصول احدى السفن • وكان كثير من الحجاج من مناطق مختلفة على تلك الحال • (ايفيم) يسأل عن اليشا ، ولكن لم يره احد •

حصل (ايفيم) على جواز سفر كلفه خمسة روبلات ، ودفع أربعين روبلا عن تذكرة ذهاب الى القدس واياب منها ، واشترى متاعا من الخبز والسمك لرحلته •

وراح الحاج يشرح لايفيم كيف يمكنه ان يركب السفينة من دون ان يدفع اجرا ولكن (ايفيم) لم يعره اذنا صاغية • وقال: كلا ، لقد أتيت وانا مستعد ان أدفع وسوف ادفع •

وشحنت السفينة • وصعد الحجاج الى ظهرها ، وكان ايفيم ورفيقه الجديد من بينهم • ورفعت المراسي وانطلقت السفينة الى البحر •

وكان ابحارهم طوال النهار رفيقا ، ولكن ريحا هبت قبيل المساء وهطل المطر وتقاذف الموج السفينة وغمر باطنها شيء كثير من المياه المتكسرة على جوانبها • وارتاع الناس واعولت النساء وصرخن ، وصار بعض الرجال الضعاف يتراكضون على السفينة بحثا عن ملجأ ، وارتعب (ايفيم) ايضا ولكنه لم يظهر ذلك ، وبقي في مكانه على ظهر السفينة حيث جلس اول مرة بالقرب من بعض الشيوخ من (تامبوف) وقد مكثوا صامتين طوال الليل والنهار التالي • متشبثين بأمتعتهم وخرجهم • وهدأ البحر في اليوم الثالث،

والقت السفينة مراسيها في اليوم الخامس في اسطنبول • ونزل بعض الحجاج الى الشاطيء لزيارة الكنيسة ، ولكن (ايفيم) بقي على السفينة ، واشترى خبزا ابيض • ومكثوا هناك اربعا وعشرين ساعة ثم اقلعوا الى البحر • وتوقفوا في (سميرنا) والاسكندرونة• ثم وصلوا اخيرا الى (يافا) حيث نزل الحجاج • وكان عليهم ان يقطعوا اكثر من اربعين ميلا برا الى القدس • وارتعب الناس كثيرا عند نزولهم فقد كانت السفينة عالية فأنزلوا الى زوارق تمايلت كثيرا بحيث كان سهلا فقدانهم وسقوطهم في الماء • وقد تبلل رجلان فعلا ولكن وصل الجميع سالمين الى البر •

وساروا على الاقدام ووصلوا القدس في اليوم الثالث ظهرا • ومكثوا خارج المدينة في الفندق الروسي حيث اشرت جوازاتهم • وزار (ايفيم) بعد الغداء الاماكن المقدسة مع رفيقه الحاج • ولم يحن الوقت للسماح لهم بدخول المرقد المقدس ولكنهم ذهبوا الى البطريركية • واجتمع الحجاج كلهم هناك • وقد فصل بين النساء والرجال الذين طلب اليهم الجلوس جميعا في دائرة وهم حفاة ، ثم جاء راهب بمنشفة ليغسل اقدامهم • وصار يغسل اقدامهم وينشفها ويقبلها ، فعل ذلك لكل من كان في الحلقة • وغسلت قدما (ايفيم) • وقبلت مع اقدام الباقين • ووقف بين المصلين في الصباح وفي المساء واقام الصلاة ، واشعل الشموع في المراقد وقدم كراسة كتب فيها اسما والديه لعلهما يذكران في صلاة الكنيسة • وقدم لهم في البطريركية طعام وشراب • وذهبوا في صباح اليوم التالي الى صومعة مريم المصرية حيث كانت تعيش

وتستغفر ربها • ووضعوا الشموع في ذلك المكان ايضا وتليت الصلاة • وذهبوا من ثم الى دير ابراهيم ، وشاهدوا المكان الذي أزمع ابراهيم ان يذبح ابنه قربة الى الله • وزاروا البقعة التي ظهر فيها المسيح لمريم المجدلية • وكان الحاج يرشد ايفيم الى هذه الاماكن كلها ويخبره كم من المال يدفع في كل مكان • وعادا الى الفندق ظهرا وتناولا الغداء • وبعد ان تأهبا للاستلقاء والراحة ، صاح الحاج بأعلى صوته وراح يفتش ملابسه ، وهو يجسها في كل مكان •

وقال : سرقت محفظة نقودي ، كان فيها ثلاثة وعشرون روبلا، ورقتان نقديتان كل واحدة من فئة عشرة روبلات والبقية قطع نقدية صغيرة • وراح يعول ويتأوه كثيرا ، ولما لم يكن في ذلك جدوى ، استلقيا لكي يخلدا الى النوم •

خطرت ببال (ايفيم) فكرة وهو مستلق : لم يسرق احد أي شيء من المال من هذا الحاج • ولا اعتقد انه يملك شيئا • فهو لم يصرف أي شيء في أي مكان على الرغم من انه جعلني انفق من مالي ويستدين روبلا مني •

وما ان خطرت هذه الفكرة بباله حتى راح يلوم نفسه قائلا : بأي حق اتهم رجلا ؟ هذا اثم • لن افكر في ذلك بعد هذا • وما ان بدأت الافكار تجول في خاطره حتى عادت الى الحاج : ما أشد اهتمامه بالمال وما ابعد احتمال سرقة محفظته ! وفكر ايفيم : انه لا يملك اية نقود • فكل ذلك مجرد اختلاق • ونهض الاثنان عند المساء وذهبا الى قداس منتصف الليل المقام في كنيسة

البعث الكبرى . وظل الحاج مصاحبا لايفيم ورافقه في كل مكان. حتى وصلا الكنيسة حيث احتشد كثير من الحجاج ، بعضهم روس واخرون من قوميات اخرى : يونانيون وارمن واتراك وسوريون. ودخل ايفيم الابواب المقدسة مع جمهور الداخلين . واخذهم راهب مارا بالحرس التركي الى مكان المخلص حيث انزل من الصليب ومسح بالزيت ، وحيث كانت شموع تشتعل في تسعة شمعدانات عظيمة . وشرح الراهب كل شيء .وقدم (ايفيم) شمعة في ذلك المكان ، ثم اقتاد الراهب (ايفيم) نحو اليمين وصعدا الدرجات المؤدية الى الجلجلة حيث كان الصليب قائما . وصلى ايفيم هناك . وأراه الاخدود حيث انشقت الارض الى اغوار عميقة ، ثم المكان الذي سمرت فيه يدا المسيح وقدماه على الصليب ، ثم قبر ادم حيث سال دم المسيح على عظام ادم ، ثم بين له الصخرة التي جلس عليها المسيح عندما وضع تاج الاشواك على رأسه ، ثم العمود الذي ربط اليه المسيح عندما جلدوه ، ثم رأى (ايفيم) الصخرة التي فيها اثران لقدمي المسيح . وكانوا يريدون ان يعرفوه على شيء اخر ، ولكن حدثت حركة بين الجمهور فاسرع الناس جميعا الى كنيسة المقام نفسها . وكان القداس اللاتيني قد انتهى توا فيها وقد بدأت الطقوس الروسية . وذهب ايفيم مع الحشد الى الضريح الذي حفر في الصخرة .

وحاول ان يتخلص من الحاج الذي مايزال يشعر بالاثم تجاهه، ولكن الحاج لم يكن راغبا في تركه ، بل ذهب معه الى القداس في المقام المقدس . وحاولا الوصول الى المقدمة ولكن الوقت كان

متأخرا • وكان الحشد عظيما بحيث كان من المستحيل الحركة الى الامام او الى الخلف • ووقف (ايفيم) ينظر امامه وهو يصلي ويتحسس محفظة نقوده بين وحين وحين • كان مقسم الفكر بين ظنه احيانا ان الحاج كان يخدعه وبين انه كان يقول الحق وان محفظته سرقت فعلا ، ولعل الشيء نفسه يحدث له •

وقف (ايفيم) يحدق في المصلى الصغير حيث المرقد المقدس الذي يشتعل فوقه ستة وثلاثون مصباحا • رأى شيئا ادهشه وهو واقف ينظر فوق رؤوس الناس • ابصر شيخا في معطف رمادي تلتمع صلعته كانه (اليشا بودروف) تحت المصابيح التي تشتعل فيها النار المقدسة •

وفكر (ايفيم) في نفسه : انه يشبه (اليشا) ولكن لايمكن ان يكون هو • فلم يستطع ان يتقدمني في سيره • والسفينة الاخرى خرجت قبل سفينتنا باسبوع • ولايمكن ان يلحق بها • ولم يكن في سفينتنا لاني رأيت كل حاج فيها •

وما كاد يفكر في ذلك حتى شرع الشيخ الصغير يصلي وانحنى ثلاث مرات • مرة لله الى الامام ومرة على كل جانب لاوليائه • وميزه (ايفيم) وتعرف عليه عندما ادار راسه الى اليمين • انه (اليشا بودروف) نفسه بلحيته المجعدة السوداء ، الرمادية عند الخدين ، وحاجبيه وعينيه وانفه ومعالم وجهه • اجل انه هو عينيه !

فرح (ايفيم) فرحا غامرا لعثوره على رفيقه مرة اخرى وتساءل في نفسه كيف تقدم عليه اليشا •

وفكر : أحسنت يا اليشا ! نظر اليه كيف يتقدم • لابد انه صادف احدا ارشده الى الطريق • سوف التقيه عندما نخرج ، واتخلص من هذا الزميل الذي يعتمر قلنسوة ، وابقى مع اليشا •لعله يبين لي كيف اكون في المقدمة ايضا •

ظل (ايفيم) ينظر الى الامام لئلا تضيع عنه رؤية اليشا • ولكن عندما انتهى القداس اخذ الحشد يموج متدافعين الى الامام ليقبلوا المرقد وقد دفعوا (ايفيم) جانبا • وانتابه شيء من الخوف لئلا تسرق محفظته ، فضغط عليها بيده وبدأ يشق طريقه بذراعيه بين الحشد متلهفا للخروج • وعندما وصل الفسحة ، تجول فيها طويلا باحثا عن (اليشا) خارج الكنيسة وداخلها • ورأى في اماكن الصلاة في الكنيسة اناسا كثيرين من كل الصنوف يأكلون ويشربون ويقرأون وينامون فيها • ولكنه لم ير (اليشا) في أي مكان • فعاد (ايفيم) الى الفندق من دون ان يعثر على رفيقه • ولم يأت في ذلك اليوم الحاج ذو القلنسوة • لقد ذهب من دون ان يدفع الروبل وبقي ايفيم وحده •

وذهب (ايفيم) في اليوم التالي الى المقام المقدس مرة اخرى مع شيخ من (تامبوف) التقاه على السفينة • حاول ان يكون في المقدمة ولكنهم دفعوه مرة اخرى الى الخلف • فبقي لدى احد الاعمدة وراح يصلي • نظر امامه ورأى في المقدمة تحت المصابيح قريبا الى المقام المقدس ـــ راى اليشا واقفا وذراعاه ممدودتان مثل قس في مذبح الكنيسة ، وصلعته تلتمع •

وفكر ايفيم : حسنا ، لن افقده هذه المرة !
وشق طريقه الى الامام ولكنه عندما وصل الى هناك لم يكن اليشا موجودا • فمن الجلي انه غادر المكان •

وبحث ايفيم في اليوم الثالث عند المقام الاقدس فرأى اليشا واقفا امام انظار الجميع وذراعاه ممدودتان وعيناه شاخصتان الى الاعلى كأنه رأى شيئا في الاعلى ورأسه الاصلع يلتمع •

وفكر ايفيم : لن ادعه هذه المرة يفلت مني ! سأذهب واقف لدى الباب ولن يفوت احدنا الآخر !

ذهب (ايفيم) ووقف لدى الباب حتى تجاوز الظهر • وخرج الجميع ولم يظهر اليشا •

مكث (ايفيم) ستة اسابيع في القدس وذهب الى كل مكان : الى بيت لحم وبيت هاني والى الاردن ، واشترى كفنا جديدا مختوما في المقام المقدس من اجل دفنه واخذ قنينة ماء من الاردن وبعض التراب المقدس واشترى شموعا اشعلت من اللهب المقدس • وكتب اسماء في ثمانية امكنة لكي يصلي من اجلها ، وانفق كل نقوده الا ما يكفيه للعودة ، ثم شرع للرحيل الى الوطن • ومشى الى يافا وابحر من هناك الى اوديسا ومشى من هناك الى بيته •

رحل (ايفيم) في الطريق نفسه الذي اتى منه • ولما اقترب من البيت عادت اليه لهفته القديمة لمعرفة كيف كانت الامور تجري في اثناء غيابه • وكما يقول المثل : « ماء كثير يجري في سنة واحدة ويحتاج بناء منزل ريفي عمرا ولا يحتاج وقتا طويلا لهدمه » •وتساءل في نفسه : كيف استطاع ابنه تدبير الامور من غيره ، واي نوع من

الربيع مر عليهم وكيف كان حال الماشية في الشتاء وهل اكمل بناء الكوخ على خير ما يرام • وعندما وصل (ايفيم) المنطقة التي افترق فيها عن (اليشا) في الصيف الماضي لم يكد يصدق ان الناس الذين يعيشون فيها هم الناس انفسهم • فقد كانوا في السنة الماضية يموتون جوعا • اما الان فانهم يعيشون في رفاه ، وكان الحصاد جيـــدا واستعاد هؤلاء الناس صحتهم ونسوا بؤسهم السابق • وصل (ايفيم) ذات مساء المكان الذي تخلف فيه اليشا • ولما دخل القرية خرجت طفلة صغيرة بثوب ابيض فضفاض من احد الاكواخ راكضة • قائلة

ــ جدي ، جدي ، تعال الى بيتنا !

اراد (ايفيم) ان يواصل سيره ولكن الصغيرة لم تدعه يفعل ذلك • فتشبثت بمعطفه ضاحكة واقتادته الى الكوخ حيث خرجت امرأة مع ولد صغير الى مدخل الكوخ واومأت له قائلة :

ــ تفضل ، ادخل ايها الجد • تناول العشاء وبت ليلتك معنا •

فدخل ايفيـــم •

وفكر في نفسه : يمكن ايضا ان اسأل عن اليشا • اظن ان هذا الكوخ نفسه الذي ذهب اليه من اجل شربة ماء • وساعدته المرأة بوضع الخرج الذي يحمله واعطته ماء ليغسل وجهه واجلسته الى المائـــدة وقدمت له حليبا وخبزا وعصيدة • شكرها (ايفيم) واثنى على لطفها في استقبال احد الحجاج • فهزت المرأة رأسها وقالت :

ــ لدينا من الاسباب الوجيهة ما يكفي للترحيب بالحجاج • فقد جاءنا احد الحجاج ليرينا ما معنى الحياة • كنا نعيش غافلين عن ذكر الله وعاقبنا الله حتى كدنا نموت • فبلغنا حالة في الصيف الماضي

مرض فيها الجميع واصبحوا عاجزين لا يملكون ما يأكلون • وكان موتنا مؤكدا لولا ان ارسل الله لنا شيخا ليساعدنا ــ شيخا يشبهك تمام الشبه • جاء يوما يطلب شربة ماء ورأى الحال التي كنا فيها وأشفق علينا ومكث معنا • أعطانا طعاما وشرابا فامكننا ان نقف على أقدامنا مرة اخرى • وفك رهن ارضنا واشترى لنا عربة وحصانا •

وعند هذا دخلت عجوز الكوخ وقاطعت الشابة قائلة :

ــ لا ندري هل كان من الانس ام من ملائكة الله • أحبنا جميعا واشفق علينا كلنا وغادرنا من دون ان يخبرنا حتى باسمه لذلك فاننا لا ندري الى من ندعو بالخير والصلاة • اني استطيع ان ارى الآن كل شيء امامي ! كنت مستلقية بانتظار الموت عندما دخل شيخ اصلع اعتيادي المظهر وطلب شربة ماء • وظننت انا الآثمة في ظني : « لماذا جاء هذا يجوس ههنا خلسة » ؟ ولكن تصور ماذا فعل ؟ فما ان رآنا حتى انزل خرجه في هذا المكان ذاته وفتحه •

وهنا شاركتها الطفلة الصغيرة الحديث قائلة :

ــ لا يا جدتي بل وضعه هنا في وسط الكوخ ثم وضعه على المصطبة •

واخذوا يتناقشون ويتذكرون كل ما قال وما فعل وأين جلس ونام وما قال لكل واحد منهم •

وجاء الفلاح رب الاسرة الى البيت على حصانه وشرع يتحدث عن اليشا وكيف عاش معهم •

ــ لو لم يأت لمتنا جميعا ونحن غارقون في الاثم • كنا نحتضر يائسين متأففين متذمرين من كل شيء من رحمة الله ومن الانسان

ولكنه جعلنا ننتصب على اقدامنا مرة اخرى • وتعلمنا عن طريقه كيف نعرف الله ونؤمن ان في الانسان خيرا • عسى الله ان يبارك فيه ! أعتدنا ان نعيش كالبهائم وقد جعل منا بشرا • وبعد ان قدموا الطعام والشراب الى (ايفيم) بينوا له اين ينام واستلقوا هم انفسهم لينامـوا •

ولكن النوم جفا (ايفيم) على الرغم من انه استلقى في فراشه فهو لم يستطع ان يبعد (اليشا) عن فكره ولكنه تذكر كيف رآه ثلاث مرات في القدس واقفا في صدر المكان •

وفكر ايفيم : هكذا اذن تقدمني • لعل الله تقبل مني حجي او لم يتقبل ولكنه تقبل حجه من دون ادنى ريب •

وودع ايفيم اولئك الناس في صباح اليوم التالـي بعـد ان وضعوا بعض الفطائر المحشوة باللحم المفـروم في خرجـه قبل ان يتوجهوا الى عملهم • وواصل الرجل رحلته •

طال غياب (ايفيم) سنة وقد وافى الربيع مرة اخرى عندمـا وصل الى بيته ذات مساء • فلم يجد ابنه في البيت وانما ذهب الى الحانة ، ولمـا عادكان السكر قد اخذ منه مأخذه • وبدأ (ايفيم) يسأله • وقد تبين له من كل شيء ان الشاب لم يكن مستقيمـا في اثناء غياب ابيه • فلم ينفق المال بنحو صحيح وقد اهمل العمل ، فصار الأب يوبخ ولده ورد الابن ردا فظا على ابيه :

ــ ولم لم تبق لتتعهد ذلك انت نفسك ؟ انت تذهب وتاخـذ النقود معك وتأتي الآن تطالبني بها !

غضب الاب غضبا شديدا وضرب ابنه •

وذهب الاب في الصباح الى كبير القرية يشكوه سوء سلوك ابنه • ولما مر ببيت (اليشا) حيته زوجة صديقه وهي لدى رواق الدار :

ــ كيف حالك ايها الجار ؟ كيف حالك ايها الصديق العزيز ؟ هل ذهبت الى القدس بسلام ؟

توقف ايفيم

وقال : نعم ، ولله الحمد • ذهبت الى هناك • وقد افترقت عن زوجك الشيخ ، ولكني سمعت انه عاد سالما •

وكانت العجوز مولعة بالثرثرة فقالت :

ــ اجل يا جارنا ، لقد عاد • رجع منذ زمن طويل ، بعد عيد رفع مريم العذراء مباشرة ، على ما اظن • وقد فرحنا ان الله اعاده الينا ! كنا خاملين من دونه • ولا يمكن الآن ان نطلب منه القيام بأي عمل فقد فاتت سنوات العمل ، ولكنه ما يزال رب الاسرة وتزداد البهجة بوجوده في البيت • وما اشد سعادة ولدنا به • فقد قال : « كأن الدنيا كانت بلا نور عندما غاب عنا الوالد » ! الحياة خاملة من دونه ايها الصديق • نحن مغرمون به ونهتم به اهتماما كثيرا •

ــ هل هو في البيت الآن ؟

ــ نعم ، أيها الصديق • انه مع نحله • انه يرعى أسراب النحل ليضعها في خلايا • ويقول ان اسرابها تزداد هذه السنة • لقد وهب الله قوة عظيمة للنحل فلا يتذكر زوجي مثيلا لذلك من قبل • هيا ادخل ايها الجار العزيز سيفرح برؤيتك مرة اخرى •

سار (ايفيم) في الممر الى الباحة ثم الى المنحلة ليرى اليشا • كان اليشا في معطفه الرمادي ولم يضع على وجهه شبكة ولم يلبس

قفازين وكان واقفا •• تحت اشجار بتولا ، ناظرا الى الاعلى وذراعاه ممدودتان ورأسه الاصلع يلتمع كما رآه (ايفيم) في المقام المقدس في فلسطين • وفوقه يشع نور الشمس خلال اشجار البتولا ويتطاير النحل الذهبي حول رأسه كالهالة ولا يلسعه •

وتوقف (ايفيم) فنادت العجوز زوجها •

وصاحت : ها هو ذا صديقك قد جاء •

التفت (اليشا) بوجه تبدو عليه علائم السرور وتقدم نحو (ايفيم) وهو يلتقط النحل بلطف من لحيته •

وقال مرحبا : نهار سعيد أيها الجار ، نهار سعيد ايها الصديق العزيز • هل وصلت الى هناك سالما ؟

ــ مشت قدماي هناك وجلبت لك ماء من نهر الاردن • تعال الى بيتي لتأخذه ، ولكن لا ادري هل تقبل الله سعيي ••• فقال اليشا : حمدا لله ! عسى الله أن يبارك مسعاك •

سكت (ايفيم) برهة ثم اردف قائلا : سارت قدماي هناك ولكن هل طافت روحي أم روح غيري في تلك الاماكن حقا ••• فقاطعه اليشا قائلا : ذلك شأن الله ، ايها الجار ، انه شأن الله •

ــ في طريق عودتي مررت في الكوخ الذي مكثت انت فيه ••• فارتعب (اليشا) وقال على عجل : هذا شأن الله يا جاري ، انه أمر الله !هيا تفضل الى الكوخ • سوف اعطيك شيئا من عسلنا • وغير (اليشا) مجرى الحديث وتكلم عن شؤون البيت •

تنهد (ايفيم) ولم يتحدث الى اليشا عن اهل الكوخ ولا كيف رآه في القدس • وقد فهم الآن ان افضل طريقة في الوفاء بالنذر الى الله والقبول بارادته ان يبدي الانسان ، محبته للآخرين ويفعل الخير لهم ما دام حيـــا •

سنة ١٨٨٥ م

٧٣ر٧٩١

ت ٩٨٥ تولستوي ، ليو (١٨٢٨ ـ ١٩١٠م)
حكايـات تولسـتوي / تولسـتوي ليـو ؛
ترجمة كاظم سعدالدين . ـ بغـداد : دار ثقافـة
الاطفال ، ١٩٩٢ ـ
حـ١ (ص) ؛ ٢٤سم ـ (سلسلة مكتبتنا)
١ ـ القصص الروسية ٢ ـ قصص الاطفال
أ ـ كاظم سعدالدين (مترجم) ب ـ العنوان
حـ ـ السلسلة

م.ر
٩٩٢/٥٦٣

المكتبة الوطنية (الفهرسة أثناء النشر)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق
ببغداد ٥٦٣ لسنة ١٩٩٢


دار ثقافة الأطفال
سلسلة مكتبتنا
قسم النشر

